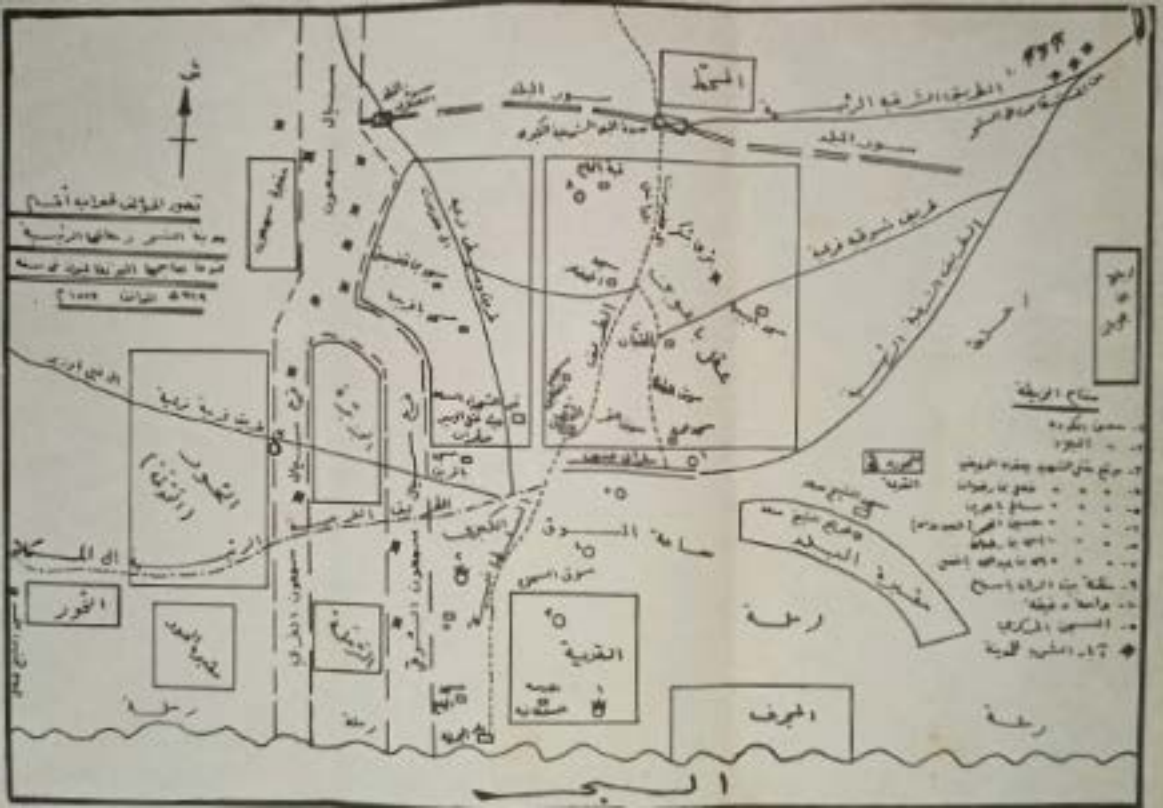
دار الهدى

محمد عبد القادر نامطرف

الشهداء السبعة




البحر
الجرف
القرية
الثور
الشونة
المسجد
الطريق الرئيسية
سور البلد
ساحة السوق
سوق الحبوب
مفتاح الخريطة

الشهداء السبعة

تأليف

محمد عبد القادر بامطرف

الاهـداء

الى مدينـــة الشـــعر العربيـــة .

(المؤلف)

تصـــدير

بســـم الله الرحمن الرحيم

ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون (١) .

(صدق الله العظيم)

---

(١) الآية ١٦٩ من سورة آل عمران .

دار الهمداني
للطباعة والنشر – عدن

الطبعة الثانية – ١٩٨٣م

الاهـداء

الى مدينـــة الشـــعر العربيـــة .

(المؤلف)

تصـدير

بســم الله الرحمن الرحيم

ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا . بل أحياء عند ربهم يرزقون (١) .

(صدق الله العظيم)

---

(١) الآية ١٦٩ من سورة آل عمران .

مقدمة

قصدت بوضع هذا الكتاب الصغير القاء الضوء على حادثة من حوادث التاريخ الاقل تعثر في مجال البطولة الوطنية مبارأ ينبغي له أن يرسل نوره الساطع ، على الدوام ، على دروب الفداء والتضحية .

إنه تعريف بحقبة من التاريخ مر بها الساحل اليمني الجنوبي ، ثم طواها النسيان أو كاد ، ولم يعد يلتفت إليها أحد رغم أن السجلات التاريخية لم تغفل ذكرها ... والمأمول أن يكون هذا الكتاب حافزاً إلى كشف بطولات أخرى عفى عليها الزمن .

ولقد كان في وسعنا أن نروي قصة « الشهداء السبعة » مختصرة في بضع صفحات ، غير أن التاريخ – كما هو مطالب اليوم – لم يعد يكفي منه معرفة كيفية حدوث الحوادث ، بل انه يراد منه أيضاً تبيان الاسباب التي أدت إلى حدوثها .

لذلك كان لزاماً علينا أن نبين لماذا وكيف شن البرتغاليون حملتهم الانتقامية على مدينة الشحر ، في العشرينات من القرن العاشر الهجري ، ولماذا وكيف قام السلطان بدر بن عبدالله الكثير المكنى « بوطويرق » بانتفاضته التأديبية المضادة ضد البرتغاليين في مدينة الشحر بعد فترة من الزمن .

إن بعض العناصر الخافية للقصة « الشهداء السبعة » التي يرويها هذا الكتاب لم تكن واردة في مراجعها التاريخية على نحو واحد ، ولم تكن رواياتها هنالك بالصورة التي يرويها هـذا الكتاب ، بيـد أن مادة الكتاب صيغت من حصيلة ماستطعت أن أقتنع بصحته أو باحتمال صحته من معظم ماذكرته ، عن هذه القصة ، المراجع التاريخية التي تمكنت من الوقوف عليها .

وان تلك المراجع المتاحة ، على أى حال ، هى فى الواقع ماكان قد أثبته المؤرخون الأفاضل الذين سبقونا إلى تدوين حادثة الشحر ، الذين نحن بصددها ، والحوادث الكبرى أو الصغرى التى أكتنفتها أو سابقت إليها أو نسجت « الحادثتان » خيوطها منها .

ولقد جعلت انتفاضة السلطان بدر أبى طويرق ضد البرتغاليين فى مدينة الشحر جزءاً من هذا الكتاب لا لأن لها صلة وثيقة بقصة « الشهداء السبعة » فحسب ، ولكنى أوردتها أيضاً لسببين اثنين :

الأول : هو أن انتفاضة السلطان بدر أبى طويرق أتت نتيجة لحادثة الشهداء السبعة وكان فيها ، من هذه الناحية على الأقل ، عزاء للذين أثخنت قلوبهم جراح الحملة الانتقامية التى شنها البرتغاليون على مدينة الشحر عام ٩٢٩هـ (١٥٢٣م) .

والثانى : هو أنها تدلنا على أن ضغط الرأى العام دفع بالسلطان بدر ، على كره منه فيما يبدو ، إلى الانقضاض على البرتغاليين ترضية للمشاعر المحلية ، ولربما لأول مرة ، التى لم يتعود ذلك السلطان اقامة أى وزن لها إلا فى أضيق الحدود .

إن الذى دفع بالسلطان بدر إلى ترضية الرأى العام المحلى ، أو قادة رجال الدين والتجـارة على الأصح ، هو أنه كان بسبيل التحول بسياسته الخارجية إلى الصف التركى ، ولذلك أراد أن يلمح ذلك الصف وله ، فى الظاهر على الأقل ، من يسنده من قادة الرأى الحضارمة ، لان الاتراك كانوا قد علموا أن الكراهية له وحكمه قد عمت الاقليم الحضرمى وسادت الأوساط الحضرمية فى المهاجر ، بسبب التملق الذى أظهره السلطان بدر للبرتغاليين والتخاذل أمام إعتداآتهم المتكررة على أهالى الساحل اليمنى الجنوبى فى البر وفى أعالى البحار .

إن المسافة الزمنية التى تفصلنا عن أجدادنا الذين عاشوا فصول « الشهداء السبعة » مسافة طويلة ، ولكن حوادث هذه القصة إذا استطاعت أن تهز مشاعرنا وأن تخلق فينا روح الشعور بالواجب لتؤديه عندما يدعو

داعية ، كما فعل أجدادنا رغم كل المعوقات التى كانت تعترض سبيلهم فان هذه المسافة الزمنية ، مهما بعدت ، لن تكون حاجزاً بين التاريخ وأدائه رسالته ... ذلك أن رسالة التاريخ ، كانت وماتزال وستظل ، هى ألا يأخذ المطلعون عليه منه الدرس أو العبرة الادبية فحسب ، بل ان عليهم أيضاً أن يستلهموه الدافع إلى العمل الايجابى المفيد .

ولم يكشف التاريخ النقاب عن كل شئ متعلق بقصة « الشهداء السبعة » ولم نشعر نحن ، لدى اعدادنا هذا الكتاب ، أننا قد أوفينا هذه الحادثة التاريخية الشهيرة حقها من الايضاح ، أو أننا قد أولينا أبطالها الخالدين ماهم جديرون به من انصاف ، أو أننا ذكرناهم بما هم جديرون به من ثناء وتمجيد .

فلئن كنا بمجهودنا المحدود قد أدينا بعض الواجب نحو آباء لنا سبقونا إلى معرفة مانفرضه الوطنية على المواطن من حقوق — معرفة استعذبوا بها تحمل صنوف من العذاب واسترخاص المال والروح فى سبيل أن يسلم الوطن ويعلو شرف المواطن — فان مجهودنا هذا سيكون قد بذل فى محله وفى وقته المناسب .

محمد عبدالقادر بامطرف

تمهيد

ضريح « السبعة » أو الشهداء السبعة بمعنى أصح ، قبر متواضع البناء داخل عمارة صغيرة مربعة الشكل مشادة من اللبن ، وهو كائن فى حى من أحياء مدينة الشحر يعرف اليوم بـ (حافة السبعة) .

ويضم هذا الضريح رفات ستة من أبناء الشحر من الذين استشهدوا فى الدفاع عن مدينتهم فى الغارة الانتقامية التى شنها القراصنة البرتغاليون (يعرفون محلياً باسم « البردجيز ») على الشحر أيام الجمعة والسبت والاحد العاشر والحادى عشر والثانى عشر ، على التوالى ، من شهر ربيع الثانى سنة ٩٢٩هـ (١٥٢٣م)* .

أما الشهيد السابع ، وهو الشيخ أحمد بن عبدالله بافضل ، فقد دفن فى قبر بالزاوية الجنوبية الشرقية من قبة والده الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بلحاج بافضل بالشحر .

وتقام لضريح « السبعة » زيارة عصر اليوم الرابع عشر من أيام عيد الاضحى المبارك من كل عام .

فمن هم هؤلاء الشهداء ؟

وماهى قصتهم ؟

إن للقصة جذوراً تمتد إلى عام ١٤٩٣م ، أى أن الحوادث التى مهدت لتلك الغارة الانتقامية القادرة على مدينة الشحر وعلى أهلها العزل ابتدأت تتجمع ، كما تتجمع مناشئ العاصفة ، قبل ثلاثين عاماً من وقوعها .

وتتعلق بقصتنا ملابسات تاريخية وسياسية واقتصادية لأقطار بعيدة عن شمال اليمن وجنوبه وعن مدينة الشحر بالذات ، ولكنها ملابسات لاحداث كونت جميعها حركة تاريخية مترابطة الأجزاء امتدت عبر قرن من الزمان على وجه التقريب .

---

* الموافق ٢٨ فبراير و١–٢ مارس ١٥٢٣م

والذى يهمنا من تلك الحقبة التاريخية هى الثلاثون عاماً التى سبقت الغارة التى هى موضوع هذا الكتاب .

ويحسن بنا ، قبل روايتنا لقصة الشهداء السبعة ، أن نمهد لها بوصف تاريخى موجز يبين لنا الأدوار التاريخية التى مرت بها مدينة الشحر - مسرح القصة - لأن هذا التمهيد ، على مافيه من تركيز واقتضاب وسرعة ، سوف يساعدنا على أخذ فكرة معقولة عن الخلفية للقصة ، ومنه سوف ندرك الدرجة التى تم بها تقييم « الشحر » فى نظر البرتغاليين ، وقيمة ذلك التقييم بالنسبة لمدينة عدن التى كانت الهدف الاول من كل ماحل بالشحر من نكبات على أيدى البرتغاليين .

وقد استقيت معظم حوادث قصة « الشهداء السبعة » ، ووصف مدينة الشحر ، حين استشهادهم ، من كتابين مخطوطين هما : « بهجة السمر فى أخبار بندر سعاد المشهر » لمؤلفه المؤرخ الملاح الربان سالم بن عوض باسباع و « زاد الاسفار فى أخبار الشحر وعدن ومالابار » لمؤلفه الاديب الشاعر الشعبى سعيد بن على بن سعد بامعبيد .. والمؤلفان من أبناء مدينة الشحر .

الربان باسباع عاصر فصول قصة الشهداء (توفى سنة ٩٥٠هـ)وأما بامعبيد (توفى سنة ١٣٤٠هـ) فهو متأخر عن عصر باسباع إلا أن كتابه احتوى على مقتطفات ترجمها هو إلى اللغة العربية من (روزنامات بعض النواخيذ) ، على حد تعبيره ، وهم الهنود الملاباريون الذين كانت سفنهم ترافق السفن البرتغالية التى كانت تهاجم قلعة عدن وميناء الشحر .

والكتابان مجلدان فى مجلد واحد ضخم . والفضل فى اطلاعي على هذين السجلين التاريخيين يرجع إلى الشيخ عمر بن عبود حميد الشحرى. فهو الذى تكرم وباعطى هذين الكتابين بثمن رمزى لانه قال انى سوف أحرص على حفظها أكثر منه . ولكن الاقدار أبت الا أن يسير الحال على عكس مااملته وأملته . فقد أخذ الكتابان من مكتبتى ، مع كتب ووثائق تاريخية وأدبية أخرى ، بعد أن كتبت ، لحسن الحظ ، مسودة قصة الشهداء السبعة ، وهما مفقودان إلى حين كتابة هذه السطور .

والله المسؤول أن يوفق إلى العثور على هذين المرجعين سليمين حتى ينتفع بهما المهتمون بتاريخ حضرموت خاصة واليمن عامة.

الاسم حضرموت

تنطق (حضرموت) بفتح الحاء والضاد وسكون الراء وفتح الميم أو ضمها وسكون الواو وفتح التاء . وتنطق أيضاً بفتح الحاء وسكون الضاد وفتح الراء وفتح الميم أو ضمها وسكون الواو وفتح التاء وهو النطق الشائع بين الحضارمة . وينطقها بعض العوام في الساحل الحضرمي (حرضموت).

هذا الاسم ورد في الآية ٢٦ من الاصحاح العاشر من سفر التكوين من التوراة (٥) (هزرماڤيث) Hazarmaveth

وفي ترجمة التوراة العربية ورد (حضرموت).

وكان ورود هذه الكلمة في التوراة على أنها إسم لشخص هو (هزرماڤيث) أو حضرموت بن يقطان . Joktan

أما ابو الحسن الهمداني١ فقد جعل (حضرموت)الابن الثامن والعشرين لقحطان من بين ستة وثلاثين إبناً: هم (١)يعرب (٢) جرهم (٣)لؤى (٤)خابر (٥) المتلمس (٦) العاض (٧) العاشم (٨) المعتصم (٩) غاصب(١٠) مغرز (١١)مبتع (١٢) القطامى (١٣) ظالم (١٤) الحارث (١٥) نبانة (١٦) قاسط (١٧) قحيط (١٨) يعفر (١٩) المود (٢٠) المودد (٢١) السلف (٢٢) السالف (٢٣) يكلا (٢٤) غوث (٢٥) المرتاد (٢٦) طسم (٢٧) جديس (٢٨) حضرموت (٢٩) سماك (٣٠) ظالم٢ (٣١) خيار (٣٢) المنمع (٣٣) ذو هوزن (٣٤) يأمن (٣٥) يغوث (٣٦) هذرم٣.

---

(٥) الترجمة الانجليزية.

١- ابو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف المتوفى سنة ٣٣٤هـ وهو أشهر مؤرخي اليمن القدامى.

٢- تكرر هذا الاسم في هذا السجل.

٣- ص ١١٦ وما بعدها من (الاكليل) ج (١).

ثم جعل الهمدانى (حضرموت) الابن العشرين من بين أربعة وعشرين إبناً هم: (١) يعرب (٢) الشلف الكبرى (٣) يشجب (٤) أزال وهو الذى يقال إنه بنى مدينة صنعاء (٥) يكلى الكبرى (٦) خولان أى خولان رداع التى فى القفاعة (٧) الحارث (٨) غوث (٩) المرتاد (١٠) جرهم (١١) جديس (١٢) المتمع (١٣) المتلمس (١٤) المتعشمر (١٥) عباد (١٦) ذا هوزن (١٧) عناء وبه كما يزعم سميت اليمن (١٨) القطامى (١٩) نباتة (٢٠) حضرموت فدخلت فيها حضرموت الصغرى (٢١) سماك (٢٢) ظالم (٢٣) خيار (٢٤) المشفر ٤.

وفى السجل الثانى الذى أورده الهمدانى بعض الاختلاف فى الاسماء عن السجل الاول.

وفى (سبائك الذهب فى معرفة أنساب العرب)٥ لأبى الفوز محمد أمين البغدادى الشهير بالسويدى الذى وضع كتابه هذا على أساس الانساب الواردة فى كتاب (نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب) لشهاب الدين أبى العباس أحمد بن عبدالله المصرى الشهير بابن أبى غدة، ورد اسم حضرموت على انه أحد أبناء اربعة لقحطان هم : (١) جرهم (٢) السلف (٣) يعرب (٤) حضرموت.

وفى الجزء الاول من كتاب (تاريخ حضرموت السياسى)٦ لمؤلفه الاستاذ صلاح البكرى جاء ان حضرموت كانت تسمى قديماً (الأحقاف) (وأذكر أخا عاد إذ انذر قومه بالأحقاف) وانما سميت (حضرموت) لسبب ذكره بعض المؤرخين وذلك ان (عامر) بن قحطان —أول من نزل الأحقاف ،فكان اذا حضر حرباً أكثر من القتل فصاروا يقولون عندحضوره (حضر موت) ثم صار عليه ذلك لقباً. وصاروا يقولون للأرض التى بها قبيلته)هذه أرض حضرموت(ثم اطلق على البلاد نفسها) أ هـ..

٤- ص ١٢١ وما بعدها من (الاكليل) ج (١).

٥- ص ١٦.

٦- ص ٣٠ ج(١).

وفى تعليقه١ على كتاب (المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد لنجم الدين عمارة بن على اليمنى قال القاضى محمد بن على الأكوع الحوالى: (حضرموت سميت بأسم حضرموت بن سبأ، فغلب عليها إسم ساكنها)..

ويذكر الدكتور جواد على فى الجزء الثانى من كتابه (المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام)٢ مايلى: وكلمة (هزرماوت) أو (حزر ماوت) Hazarmaveth الواردة فى التوراة على أنها الابن الثالث من أبناء (يقطان) تعنى (حضرموت) ومعناها اللغوى (دار الموت)، وعرفت فى الموارد الاسلامية كذلك. وقد وصلت فى الاسلام عن طريق أهل الكتاب...قال ابن الكلبى: (إسم حضرموت فى التوراة حاضر ميت، وقيل سميت بحضرموت بن يقطن بن عامر بن شالخ) أ هـ.

ويواصل الدكتور جواد على حديثه قائلا: ويذكر الأخباريون ان يعرب تولى الملك بعد قحطان، وكان ملكه باليمن، وقد غلب بقايا عاد ووزع إخوته فى الاقطار .فأقر أخاه (حضرموت) على الأرضين التى عرفت باسمه فقيل لها حضرموت ، وعين (عمان) على أرض (عمان) وولى (جرهم) على الحجاز . والملاحظ أن (عمان) هذا لم يذكره الهمدانى لافى اللائحة الأولى لأبناء قحطان ولافى سجل خولان..أما (جرهم) فقد ذكره الهمدانى فى اللائحة الأولى التى مر ذكرها.

ويمضى الدكتور قائلا: وقد ذهب أكثر من بحث فى أسباب التسمية من العلماء العرب إلى ان حضرموت هو أسم (ابن يقطن) أو (قحطان) وانه كان انساناً وبه سميت الأرض . وما بنا حاجة إلى ان نقول مرة أخرى إن هذه النظرية ليست عربية وانما تسربت إلى الأخباريين إذ جعلت (حضرموت) سم رجل هو (ابن يقطان).

ويختتم الدكتور جواد على بحثه بقوله : وقد ورد اسم (حضرموت) فى الكتابات العربية الجنوبية.. ورد فيها أسماء عدد من ملوك حضرموت

١- ص ٤٥.

٢- ص ١٣٠-١٣١.

وأسماء أسر حضرمية، وبفضل هذه الكتابات حصلنا على معلومات لابأس بها من مملكة حضرموت وعن علاقاتها بالدول العربية الجنوبية الأخرى.

أما المؤرخ صالح بن على الحامد فيقول فى الجزء الأول من كتابه (تاريخ حضرموت)[1] : وحضرموت فى الأصل على ماقيل اسم ملك من ملوك حمير وبه سميت الناحية وسكنها بنوه. وقد سكن بسائط (حضرموت) حضرموت وسكن سواحلها مهره من قضاعة ولايتجاوزون القسم الساحلى منها. أما القسم الداخلى فموطن قبيلة حضرموت من حمير وباسمهم سميت البلاد كما قلنا أ هـ.

وقد حاول المؤرخ محمد أحمد الشاطرى فى الصفحة الخامسة والثلاثين من الجزء الأول من كتابه (أدوار التاريخ الحضرمى) ان يوفق بين بعض الروايات المتضاربة التى ذكرناها هنا حول حضرموت وتسميتها فقال: (يذكر المؤرخون نسبة قحطان بن عامر ابن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، وأحد أبنائه يسمى حضرموت ولهذا سميت البلاد بأسمه أو بأسم حضرموت الأدنى ابن حمير الاصغر بن سبأ الأصغر إلى آخر النسب المنتهى إلى قحطان، أو بأسم القبيلة المنتسبة اليه لنزوله هو ونسله فيها كما تسمى كثير من الأقاليم والبلاد بأسم لنازل بها من فرد أو قبيلة أو شعب . ولقحطان بنون آخرون منهم يعرب بن قحطان الشهير فى التاريخ ، والذى ولى أخاه حضرموت على حضرموت المسماه بأسمه أو بأسم من هو أدنى منه وهو حضرموت المعزو إلى قبيلة سبأ)..

وفى دائرة المعارف البريطانية[2] جاء مايلى: ان اسم حضرموت ضارب فى القدم ، وقد ورد فى سفر التكوين هزرمافيث ابن قحطان. وتذكر الموارد اليونانية ان بلاد اللبان تذكر بان اسمها Adramytta (ادرامیتا) و Chadramotites (خادراموتى) . وكان هذا الاقليم يكل تأكيد ينعم برخاء عظيم وحدنية متقدمة جداً فى العصور السالفة كما دلت على ذلك الخرائب

١- ص ٩.

٢- ص ٦٥ ج(١١) طبعة ١٩٦٣م.

المعدنة المكتشفة في وادي (دوعن) و(علم)أ.هـ

على أن صديقنا المغفور له الشيخ محمد بن ريس بن طالب الكثيري ، وكان رحمه الله من المهتمين بتاريخ حضرموت القديم ، اعطانا ذات مرة تفسيره لاسم (حضرموت) وهو تفسير ممتع لايستطاع أحد ان استعراضنا بعض ماقيل عن أسباب تسمية اقليمنا الشهير باسم (حضرموت) .قال الشيخ بن ريس: ان اسم حضرموت مركب تركيباً مزجياً إذ هو مكون من كلمتي (حضرم) و(موت) وان حضرم هو الأب الاكبر للقبائل الحضرمية القديمة، وانه هو المشار اليه في الاصحاح العاشر من سفر التكوين (التوراة) باسم هذرم Hadoram كما قد ذكره الهمداني بوصفه الابن السادس والثلاثين لقحطان. اما كلمة (موت) فهي محرفة من كلمة (متو) البابلية ومعناها الأرض أو المنطقة٣. ولايخفى ماكان من التشابه بين البابلية واللهجات العربية الجنوبية١ وعليه قال اسم (حضرم موت) أي (أرض حضرم) أو (منطقة حضرم) حرفت عبر العصور من الاسم المزجي لحضرموت وهو (متو حضرم) .ثم ادغم احد الميمين من الاسم (حضرم موت) مع تكرار التلفظ فصارت كلمتا الاسم (حضرم موت) كلمة واحدة هي (حضرموت) أ.هـ.

ويحسن بنا الاكتفاء بهذا القدر من اقتباسات وروايات واستنتاجات النسابين والأخباريين والمؤرخين عن الاسم (حضرموت) .ولم يكن غرضنا من عرض كل تلك الروايات الا التدليل على ان العديد من المعالم التاريخية اليمنية تعرض لمثل هذا التضارب والاضطراب في الرواية:

ان هذا التعدد والتضارب في الروايات التاريخية اليمنية يشدنا إلى أمل نرجو ان يتحقق وهو ان تتمكن الهيئات العلمية اليمنية وغير اليمنية من غربلة التاريخ اليمني بغرض الخروج بصيغة موحدة من ارجح الروايات ، عن الحوادث والمعالم التاريخية اليمنية قديمها ووسيطها وحديثها.

٣- أكد هذا القول الدكتور جواد علي في صفحة ١٧ ج (١) من كتابه (المفصل).

١- ص ٢٢٢ ج (١) من (المفصل) للمؤلف نفسه.

وبطبيعة الحال فان مجال البحث سيظل مفتوحاً ، كما هو الان ، أمام الباحثين المتخصصين ليرجعوا إلى بعض الروايات المتعددة والمتضاربة، عن الموضوع الواحد، ليشبعوا منها نهمهم، ولربما استطاعوا ، من حين لاخر الاتيان بأستنتاج أو تفسير أو تصحيح جديد لرواية من الروايات التاريخية الكثيرة عن ذلك الموضوع الواحد .. ومعنى هذا ان أمام المهتمين بالتاريخ اليمني ،في مختلف مراحله ،ميداناً فسيحاً وممتعاً للبحث والدراسة والتأليف.

وإلى ان تحقق الروايات التاريخية اليمنية المتضاربة والمتعددة فلا مناص من ان تظل مثل هذه الروايات مصادر للتاريخ ، مالم تكن مخالفة للمعقول أو المشاهد أو للسنن الكونية، ومسيطرة على ميدان التأليف ،إلى ان يوجد البديل لها.

حدود حضرموت

لانريد ان نسرد هنا مختلف الروايات التاريخية المتعددة والمتضاربة عن حدود حضرموت التي عرفت في أدوار التاريخ ،فهي اجتهادات شبيهة بالاجتهادات التي أوردناها عن اسم حضرموت. واعتذارنا عن هذا التقصير، ان هو محسوب علينا، ان هـذا الكتاب ليس بحثـاً في التاريخ اليمني القديم ولكنـه دراسة عن فترة معينـة من التاريخ لاتتعدى الثـلاث عشرة سنة من القرن العاشر الهجري . وأن معالجتنا بعض جوانب التاريخ القديم والوسيط بالمس السريع لم يكن الا من قبيل استكمال اطار الخلفية لهذه الفترة القصيرة من تاريخنا .. لذلك فانه يكفينا ان نوجز بان حدود حضرموت المشهورة قديماً وحديثاً هي (أبين)١ في الجنوب الغربي ، وعمان في الجنوب الشرقي ،

١– يعض المؤرخين يذكرون ان حد حضرموت الغربي هو (عين بامعبد) أنظر الملاحظتين ١١١–١١٢ من هوامش هذا الكتاب ولعل الحدود التي كشت، في تاريخ متأخر، من أبين إلى عين بامعبد.

و (صهيد)[٢] الفاصل بين مأرب وحضرموت فى الغرب الشمالى ، والصحراء الممتدة من منطقة (العبر) فى الغرب الشمالى إلى منطقة (مقشن) فى الشرق الشمالى .

وتنقسم حضرموت طبيعياً إلى قسمين : وادى حضرموت (حضرموت الداخل) والشحر (حضرموت الساحل) . ويشتمل وادى حضرموت على شبوه والعبر وأودية عرمة ودهر ورخية والسور وعمد ودوعن والعين ومنوب وسر وبن على وجعيمة وعدم والمسيلة والحول الذى تتحدر منه مياه هذه الأودية .. ويشمل الساحل المهرة وظفار الحموطى إضافة إلى اقليم الشحر المنتهى بأبين فى الغرب الجنوبى .

وفى عهد التبابعة يعتبر وادى حضرموت منفصلا عن الشحر من الناحية السياسية .. والواقع انه ظل كذلك إلى قيام الدولة القعيطية سنة ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م) التى أقامت لها مناطق إدارية فى داخل وساحل حضرموت .. ومن المعروف تاريخياً ان الملك اليمنى لايطلق عليه لقب (تبع) إلا إذا حالفته دولة وادى حضرموت ودولة الشحر .

إن مساحة حضرموت ، بالنظر إلى حدودها المذكورة ، لاتقل عن ثمانين ألف ميل مربع ، بيد انها لم تكن كثيفة السكان . ومع ذلك فان الهجرة الحضرمية ، فى عهد الفتوح الاسلامية ، أخذت جانباً كبيراً من سكانها الذين طابت لهم الحياة فى مهاجرهم العربية والاسلامية الجديدة كالعراق والشام ومصر وشمال افريقيا والاندلس .

ولما تقسمت اليمن إلى مشيخات صغيرة فى العهد العباسى ، فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى — مشيخات تمتد حيناً وتنكمش حيناً آخر ، تقلصت الرقعة الحضرمية حتى أضحت حدودها حين استقلال الجنوب اليمنى فى ٣٠–١١–١٩٦٧م (رأس الكلب) فى الغرب الجنوبى و (دمخ حساى) فى الشرق الجنوبى ، وعرمة و (العبر) فى الغرب الشمالى ، و (صناو ومهرات) فى الشرق الشمالى .

٢– صهيد فى بعض الروايات.

مدينة الشحر من فجر التاريخ إلى السنة العاشرة الهجرية

بعد دخول الجزء الغربي من حضرموت في اتحاد سبأ – ريدان – حضرموت غرب يمنات (١) في حوالي سنة ٣٠٠ ميلادية ، حول الحضارم الشرقيون الذين لم يدخلوا هذا الاتحاد مركز تجارتهم من شبوة إلى شبام (حضرموت) في الشمال ، كما حولوا مركز تجارتهم من (القنا) (٢) وهو مايعرف اليوم بمنطقة (بئر علي) إلى ميناء في الساحل الحضرمي اسمه (السوق) وهو الميناء الذي عرف فيما بعد باسم (الشحر) .

وقد تمكن الحضارم المنشقون على اتحاد سبأ – ريدان – حضرموت غرب – يمنات من تثبيت وتجذير هذا التحول لان منطقة (ظفار) منبت تجارة اللبان – عماد الاقتصاد اليمني حينذاك – كانت جزءاً من شرق حضرموت .

وقبل الانشقاق الذي تحدثنا عنه ، كانت القوافل تنقل اللبان من ظفار إلى شبام ومنها إلى شبوة أو مأرب ، ثم تحول هذا الخط التجاري فاصبحت القوافل تأتي من شبام إلى (السوق) ومنها يصدر اللبان إلى خارج البلاد .

وعندما انضمت منطقة القنا إلى اتحاد سبأ – ريدان – حضرموت غرب – يمنات ، فان مما زاد الحضارم الشرقيين قوة ومنعة ان قبيلة آل الغراب التي كانت مسيطرة على منطقة القنا ، ومنها حصن الغراب الذي سمي باسم هذه القبيلة ، انتقلت من منطقة القنا إلى منطقة (شرمة) في شرق حضرموت وتحالفت مع قبيلة الحموم وهي القبيلة الكبرى من قبيلتين حضرميتين أصيلتين (تفرعتا من قبيلة حضرموت القديمة) . أما القبيلة الحضرمية الأخرى فهي قبيلة (ثعبن) وكانت هاتان القبيلتان (الحموم وثعبن) مهيمنتين على ساحل الشحر الشرقي وكان يتألف من جزء اسمه (المشقاص) ويمتد من دمخ حساى في الشرق إلى (عطار) ، اسم قرية الحامي القديمة ، في الشرق ، ومن جزء آخر اسمه (المعراب) ويمتد من عطار في الشرق إلى (المعينة) في الغرب .

إن آل الغراب هم القبيلة التي تعرف اليوم باسم (بيت غراب) وانه لمن الممتع حقاً ان نلاحظ ان ذلك التحالف التاريخي الوثيق قائم إلى اليوم بين الحموم وبيت غراب ، كما ان الشروط التي قام عليها هذا التحالف سارية المفعول إلى يومنا هذا[1] .

وقد سألت عدداً من شيوخ الحموم وبيت غراب عن الزمن الذي قام فيه التحالف بينهم ، وكان ردهم : «إنه من زمان الجاهلية» .. وهم على حق في ردهم هذا الذي تلقوه خلفاً عن سلف عبر عشرات القرون ، لان تحالفهم كان في الوقت الذي انشيء فيه اتحاد سبأ – ريدان – حضرموت غرب – يمنات ، وكان ذلك حوالي سنة ٣٠٠ ب.م .

وبمناسبة الحديث عن (بيت) غراب ، والشيء بالشيء يذكر ، فان كلمتي (بيت) و (با) اللتين تسبقان أسماء القبائل والأسر الحضرمية في منطقة الشحر واجزاء أخرى من حضرموت الداخل ، هما من رواسب اللغة الارمية (إرم عاد) التي كانت متمركزة في مدينة (حريضة) . وكانت إرم عاد ذات حضارة متميزة على من عاصرها من قبائل حضرموت الأخرى ومؤثرة فيها .

وحتى في الوقت الذي كانت فيه القنا مزدهرة بكونها المنفذ البحري الرئيسي لصادرات اللبان الواردة من شبوة أو من مأرب ، فقد كانت (السوق) منفذاً تجارياً ليس بالأقل اهمية ، لان السوق كانت قنطرة طبيعية للتبادل التجاري بين الهند والخليج العربي ومصر وشرق افريقيا من جهة ، وبين المنطقة الحضرمية الواقعة بين وادي عرمة ومدينة وذيعوت (الكائنة أسفل وادي المسيلة) القديمة ، شرق حضرموت ، من جهة أخرى .

ولم تكن تجارة (السوق) الرئيسية منحصرة في اللبان ، كما كان حال شبوة ومأرب وتمنع وقرناو ، ولكنها كانت تجارة ذات طابع اقتصادي متنوع . وهناك ميزة أخرى كانت (السوق) تتمتع بها وهي كونها ميناء (ترانزيت) إلى ومن اقطار خارجية عديدة في مقدمتها الهند وشرق وجنوب افريقيا .

---

١ – للمزيد من تفاصيل هذا التحالف وغيره من الاحلاف العشائرية الحضرمية القديمة أنظر كتابنا (التركيب العشائري الحضرمي)..

لكن المهرة لم يستطيعوا التمتع طويلا بخيرات (السوق القديمة) أو (الشحر) لان الحموم ، وهم الذين كانوا مسيطرين على المناطق المحيطة بها صاروا يتحكمون فى الداخل إلى الشحر والخارج منها ، ويقطعون السبل العامة على التجار الذين كانوا يأتون إلى (الشحر) للتجارة الموسمية ، بحكم عوائد الخفارة (أو مايعرف اليوم بالسيارة) التى كانوا يفرضونها على طرق القوافل التجارية المؤدية إلى الشحر والتى تمر بمناطقهم الجبلية . فضعف شأن الشحر بين الاسواق العربية القديمة ، وأصبحت عبئاً ثقيلا على المهرة الذين ظلوا محتفظين بهذا الميناء إلى أن اخرجتهم منها قبيلة كندة الوافدة من عمان إلى حضرموت .

تتكون منطقة السوق القديمة والتى اطلق عليها المهرة اسم (الشحر) بعد احتلالهم لها — تتكون من (دلتا) عبارة عن سهل واسع تمتد عليه مخيمات التجار فى المواسم التجارية على طول الساحة الواقعة بين مسيال (دفيقة) الواقع شرق هذا السهل ، ومسيال سمعون الواقع غربى هذا السهل . وعلى ساحل هذه المنطقة تقع مرسى السفن ، وهذا هو حالها إلى اليوم .

كان يطلق على هذه (الدلتا) اسم (اللسة) لخفافها وقحولة أرضها وضآلة النبت فيها رغم الاحساء العديدة المحيطة بها . وان من تلك الاحساء (الآبار) ماهو مستعمل إلى اليوم فى مسيال سمعون وواحة دفيقة . ومع مرور الزمن حرفت كلمة (اللسة) إلى (اللسعة) وذلك لشدة حرارة الشمس بها أيام القيض . ثم حرفت (اللسعة) إلى (الأسعاء) أو (الأسعى) ثم حرفت كلمة (الاسعاء) إلى (سعاد) وهو الاسم الذى يطلقه أهل الشحر على مدينتهم وتزخر به اشعارهم الشعبية .

وفى خريطة وضعها الرحالة الشهير (بطليموس) فى اجواء سنة ١٤٠م ذكر اسم الاسعاء كمركز تجارى تؤمه السفن عابرة المحيط الهندى ، وسماها بطليموس Alasa Emporiam وذكر إلى غربها ميناء (بروم) وإلى شرقها ميناء (شرمة) اضافة إلى العديد من المرافئ القديمة التى لا يستطاع تبين اسمائها الصحيحة على الخريطة المذكورة .

لذلك ظلت (السوق) مركزاً تجارياً هاماً حتى بعد أن تلاشت تجارة اللبان ونتيجة لذلك تلاشت أهمية بعض العواصم الجنوبية القديمة .

ولايعني ذلك أن (السوق) لم تلعب دوراً ملحوظاً وهاماً في تجارة اللبان... لقد ازدهرت التجارة في هذه السلعة في (السوق) في تاريخ متأخر باكثر مما ازدهرت حتى في ظفار موطن اللبان الاصلي . وان ازدهار تجارة اللبان في السوق (الشحر) هو الذي الصق بأهل الشحر لقب (اللبان) إلى اليوم بين الالقاب التي يطلقها الحضارمة على كل مدينة وقرية تقريباً في حضرموت[1] وبهذا الصدد قيل من باب التهكم على أهالي الشحر :

اذهب إلى الشحر ودع عمانا
إن لم تجد تمراً تجد لبانا

إن ازدهار (السوق) باقتصادها المتنوع جعل لها مكانة مرموقة بين الأسواق العربية القديمة .. فهي احدى اسواق عشر اشتهرت في الجزيرة العربية في سالف الأيام ، وهي (سوق الشحر) و(سوق الرابية) بوادي العين . و (سوق هود)[2] شرق وادي حضرموت ، و (سوق عدن) و (سوق صنعاء) .. تلك أسواق خمس في اليمن . أما الأسواق الخمس الأخرى فهي : (سوق دبي) بالخليج العربي ، و (سوق البحرين) المعروفة بالمشقر ، و (سوق دومة الجندل) بشمال الجزيرة العربية ، و (سوق صحار) بعمان ، و (سوق عكاظ) بالحجاز .

وكانت المنطقة الواقعة بين (عمان) و (أبين) تعرف باسم (الشحر) ، وينطقها أهل الشحر بضم الشين وسكون الحاء ، وهي جمع (شحرة) ومعناها مسيل الماء الجاف وذلك لكثرة المسائيل الجافة بها . ويذكر الأخباريون — على طريقتهم في المبالغة على مايبدو — أن كانت بهذه المنطقة تسعون مدينة على شواطئها .

١— أنظر دراستنا عن القاب المدن والقرى الحضرمية وماقيل فيها من قصائد شعبية حضرمية..

٢— أنظر الملاحظة ١٣٧ في فصل الحواشي.

ولقد كان (المهرة) ، وهم ينسبون إلى قضاعة كما يذكر النسابون ، وكانت عاصمتهم (حيريج) وهي الآن اطلال على ساحل الاقليم المهري ، في حرب سجال مع الحموم وثعين سعياً منهم خلف السيطرة على الجزء الشرقي من ساحل منطقة الشحر (عمان — أبين) .. وفي فترة من الزمن استطاع المهرة اخضاع المنطقة الساحلية الواقعة بين (المصينعة) وهي المنطقة الواقعة شرق ريدة آل عبد الودود بالمشقاص ، والسوق ، وأقاموا لانفسهم على الضفة الشرقية لمسيال (دفيقة) سوقاً إلى الجنوب من جبل (ظبظب) المطل على مدينة الشحر من الشمال الشرقي ، لمنافسة السوق القديمة واجتذاب التجارة الموسمية اليها . ولذلك اطلق بعض العرب الذين كانوا يرتادون هذه المنطقة للتجارة اسم (سوق المهرة) أو (سوق الشحر) على هذا المركز الجديد تمييزاً له عن السوق القديمة .

والمهرة يتحدثون إلى يومنا هذا ، لهجة جنوبية قديمة جداً قيل الكثير عن أصلها . لذلك قال الهمداني ، وتبعه مؤرخون آخرون ، (إن لسان أهالي الشحر — ولم يقل شحر المهرة — مستعجمة جداً لايكاد يوقف عليها) . ولقد أوقعت ملاحظته الغامضة هذه بعض المؤرخين المحدثين نسياً في أوهام عن لسان أهل الشحر الحاليين .

ومن المحتمل أن لهجة (شحر المهرة) هي التي دفعت بعمرو بن العلاء أن يقول جملته المشهورة : (ما لسان حمير وأقاصي اليمن لساننا ولا عربيتهم بعربيتنا)

وقد فشلت (سوق شحر المهرة) ولم تستطع المضي شوطاً بعيداً في منافسة السوق القديمة . ولا نعرف كم عمرت سوق (شحر المهرة) .، ولكن الأخباريين يذكرون أن المهرة بعد أن فشلوا في بث الحياة في سوقهم الجديدة ، باجتذاب التجارة الموسمية اليها ، هاجموا السوق القديمة واحتلوها بعد طردهم الحموم منها واطلقوا على السوق القديمة اسم (الشحر) استئصالاً منهم لشأفة الحموم وتخليداً لاحتلالهم ذلك الميناء العريق . لكن اسم (السوق) ظل لاصقاً بمدينة الشحر إلى يومنا هذا .

وبعد أن قوض الغزاة الاحباش دعائم المملكة الحميرية(٣) سنة ٥٢٥م على عهد الملك يوسف ذى نواس ، اصبحت الشحر (المدينة والمنطقة) من جملة النواحى اليمنية التى استقلت بالحكم عن السيطرة الحبشية التى انحصرت فى الحزئين الشمالى والشمالى الغربى من اليمن .

وعندما استعاد الملك الحميرى سيف بن ذى يزن ، بمساعدة الفرس ، ملكه من الاحباش سنة ٥٧٦م بسط نفوذه على حضرموت ومنطقة الشحر كلها . . إلا أنه كان نفوذاً سرعان ما تقلص وخاصة بعد أن قامت قبيلة كهلان من عمان إلى ساحل منطقة الشحر الشرقى وبسطت سيطرتها عليه كما بسطت نفوذها على الشحر المدينة .

وعلى مر السنين دخلت كهلان ، وهى احدى بطون كندة ، فى صراع مع الحموم وبيت غراب وثعين والمهرة ، ولكن كهلان تمكنت من الحاق الهزيمة بهذه الجبهة العشائرية الحضرمية ودحرتها من سوق الشحر على أساس المبدأ العشائرى المعروف : (من عز يز) ..

إن سيطرة كهلان على الشحر المدينة والمنطقة المحيطة بها لم يكن أول مقدم لكندة إلى حضرموت من عمان. فقد سبقتها إلى حضرموت الداخل فيما يقله الأخباريون ، بطون أخرى من كندة قدمت غازية من البحرين وعمان واستقرت بما كانت تتمتع به من قوة ، فى مناطق مختلفة من حضرموت الداخل. ومن تلك البطون (السكون) الذين بسطوا نفوذهم على جزء من وسط حضرموت ، و(السكاسك) الذين بسطوا نفوذهم على جزء من غرب حضرموت و(وتجيب) الذين بسطوا نفوذهم على منطقتى عندل والهجرين ووادى دوعن أيمنه وأيسره ، و(الصيعر) الذين بسطوا نفوذهم على الجزء الغربى من الصحراء حضرموت الشمالية ونزل بعضهم منازل (الجعفيين) فى وادى عمد وجردان لحضرميين .

وفى الوقت الذى قامت فيه بطون كندة المذكورة إلى حضرموت ساحلها وداخلها ، وفدت على حضرموت ، من شمال اليمن ، قبيلة (نهد) ، التى

يذكرها الأخباريون فى مواردهم باسم (خيشة)، وسكنت منطقة (الكسر)، كما وفدت قبيلة (بنو حرام) التى سكنت شرق حضرموت وصحراءها الشمالية الشرقية. ويذكر الأخباريون أن بنى حرام يلتقون مع (نهد) فى جدهم عمر بن سبأ الأكبر.

وفى عهد سيف بن ذى يزن وفدت على حضرموت قبيلة (يافع) وأستقرت فى المنطقة التى تعرف الان بمنطقة (القطن).

وعلى مر الزمن تفرع من قبيلة بنى حرام الاتحاد القطنى – ومنه المناهيل وآل تميم والمعارة – الذى نشأت منه سلطنة آل عمانى التى سوف يأتى ذكرها فى موضعها من هذا الكتاب.. كما تفرع من قبيلة بنى حرام الاتحاد الشنفرى (يضم آل كثير وآل جابر وآل باجرى والعوامر) الذى تفرعت منه سلطنة آل كثير التى سوف نتحدث عن بعض رجالها فى هذا الكتاب. ومن الفخائذ اليافعية التى استقرت فى منطقة القطن نشأت عدة إمارات بحضرموت أشهرها سلطنة آل بريك بالشحر، وسلطنة آل كساد بالمكلا، والسلطنة القعيطية التى حلت محل سلطنتى آل بريك وآل كساد المذكورتين بعد أن قضت عليها.[1]

واليوم لم نعد نسمع عن بطون كندة القديمة التى سبق ذكرها غير (الصيعر) الذين لايزالون مسيطرين على منطقتهم بحضرموت. أما البطون الكندية الأخرى فقدها جرت كلها فى عهد الفتوح الاسلامية ولم يبق منها بحضرموت الا فروع صغيرهم (الصدف) القاطنون منطقة غيل بن يمين[2].

وفى منطقة الشحر أنشأت كهلان (كندة) محلتها التى عرفت منذ القديم باسم (القرية) على ساحل مدينة الشحر، وهى باقية إلى اليوم وتشكل أقدم أحياء الشحر الحديثة.

١– للمزيد من التفاصيل عن تاريخ حضرموت عامة والشحر خاصة من السنة الاولى للهجرة (٦٢٢م) الى السنة ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م) اقرأ كتابنا «المختصر فى تاريخ حضرموت العام».

٢– من أراد الالمام أكثر بأحوال العشائر الكندية الحضرمية فليرجع الى كتاب (جواهر تاريخ الاحقاف) للشيخ عوض با حنان وهو كتاب مفيد فى بابه.

مدينة الشحر فى التاريخ الاسلامى

«من سنة ١٠ إلى ١٢٢ هجرية»

فى السنة العاشرة الهجرية اعتنق أهالى حضرموت ، ومنهم أهل مدينة الشحر بطيبة الحال ، الدين الاسلامى ونبذوا وثنيتهم ، إلا أن مظاهر معينة من وثنيتهم القديمة اتخذت أشكالا أخرى وترسبت فى حياتهم المعيشية والاجتماعية.

وأقام حكام الشحر ، من قبيلة كندة ، مسجد الجامع العامر بناؤه إلى اليوم ولعله من أقدم المساجد اليمنية.

ويذكر الأخباريون ان الأحوال العامة ساءت فى عموم اليمن فى العهدين الأموى والعباسى.. ويحتمل ان التذمر من الأمويين والعباسيين الذى نقرأ عنه فى بعض كتب التاريخ كان سببه ان الحالتين السياسية والاقتصادية فى اليمن قد اعترتها بعض السلبيات بسبب تلاحق الغزو وتسيير الجيوش وبالتالى تدهور الاقتصاد وانكماش حجم الخدمات العامة . وبسبب عصيان الولاة المحليين الذين حالت السيطرة الأموية ـ العباسية دون تفردهم بالسلطة التى كانوا قد أقروا عليها فى الحقبة التى سبقت العهدين الأموى والعباسى.

ويبدو لنا أيضاً ان للناحية المذهبية دخلا فيما امتلأت به بعض كتب التاريخ من نقمة على الأمويين والعباسيين.

ويعزو بعض الأخباريين ثورة عبدالله بن يحيى الكندى الأباضى ، الذى عرف فى تاريخ اليمن بلقب (طالب الحق) سنة ١٢٩هـ ، إلى اضطراب الأحوال العامة والخلف السياسى والتنازع المذهبى اللذين سادا ربوع اليمن عامة وحضرموت خاصة.

وتمثل هذه الثورات والثورات المضادة والتكالب على السلطة تعرضت حضرموت لمجازر رهيبة منها تلك المجزرة المشهورة التى تعرض فيها الاباضيون الحضارمة للقتل الجماعى على يد معين بن زائدة الشيبانى الذى عينه العباسيون

والياً على اليمن سنة ١٤٢هـ. وعلى الرغم من ان الحضارمة قد انتقموا من معن بن زائدة بقتله[١] الا أن مجزرتهالتي كانوا قد تعرضوا لها جسمتها كما يبدو الخلافات السياسية وبالتالي جرت إلى جدل ومشاعر مختلطة لدى المهتمين بالتاريخ.

والاباضية، نسبة إلى عبدالله بن أباض التميمي، هم فرقة من الخوارج الذين يطلقون على أنفسهم لقب «الشراة» لانهم، كما يقولون قد باعوا أنفسهم من الله واشتروا بها الجنة.

وطالت اليمن، كما يذكرها الاخباريون، مقسومة في ذلك العهد إلى أقاليم ثلاثة، هي الجند ومخاليفها وهو أعظمها، وصنعاء ومخاليفها وهو أوسطها وحضرموت ومخاليفها وهو أصغرها.. وعلى كل من هذه الاقاليم الثلاثة وال يستقل بالتصرف في تسيير دفة الحكم في أقليمه حيناً ويخضع للخليفة العباسي مباشرة أو للوالي المقيم في صنعاء حيناً آخر.

بيد أن هذا الوضع الاداري المركزي لم يرفع جور اضطراب الاحوال في الاقاليم اليمنية السالفة الذكر. ولذلك عين المأمون العباسي محمد بن زياد والياً على تهامة سنة ٢٠٢هـ. ومحمد بن زياد هذا هو الذي جعل مدينة زبيد القديمة حاضرة له سنة ٢٠٤هـ، ثم دخلت بقية الاقاليم اليمنية، تقريباً، تحت حكم محمد بن زياد بعد انتفاضته ضد العباسيين.

وكان ابن زياد طموحاً، فأسس دولة بني زياد في اليمن وفي وجه مقاومات ومطامع محلية وخارجية لايستهان بها، منها، على سبيل المثال، حركة اليعافرة التي قامت في شمال اليمن سنة ٢٤٧هـ.

ويذكر الاخباريون ان ملك الزياديين امتد إلى حضرموت وشمل مدينة الشحر.

١- أنظر الملاحظة ١٣٨ في فصل الحواشي.

ولما قامت الدولة الصليحية في اليمن سنة ٤٢٩ هـ بسطت نفوذها على الشحر سنة ٤٥٥هـ. وفي هذه الفترة كان بنو معن حكاماً على الشحر.. وهنا يختلف الاخباريون ، فمنهم من ذهب إلى أن بني معن هؤلاء يرجعون بنسبهم إلى السناح معن بن زائدة الشيباني، ومنهم من يرى غير ذلك وعلى رأس هؤلاء مؤرخنا عمارة اليمني.

وعلى أي حال، فأن الصليحيين لم يحكموا مدينة الشحر حكما مباشراً ولكنهم ابقوا بني معن حكاماً عنهم على الشحر وأحباطها.

كان النواب المحليون على الشحر ،على عهد الصليحيين وعلى عهد الدول اليمنية التي قامت في أعقاب الصليحيين، يدفعون كل عام أتاوات من الذهب والعنبر الأصلي يقدرها البعض بمائتين وخمسين وطلا من الذهب وعشرين وطلا من العنبر.

ولقد كانت هذه الأتاوات تعبيراً عن ولاء حكام الشحر وارتباطهم باليمن الأم التي كانت عواصمها مهايأة بين صنعاء وتعز وعدن.. لكن اليمن الأم لم تكن تتدخل في تصرفات حكام الشحر المطلقة وانما كانت عبئاً ثقيلا على الرعية وعلى الخزينة العامة، ولم تحاول أصلاح الاوضاع في الشحر لان أوضاعها هي كانت فاسدة. ومع ذلك فان اليمن الأم تهب إلى التدخل اذا حاول أحد من حكام الشحر الانتقاض ضدها والاستقلال بالحكم .واستمر الحال على هذا المنوال إلى عهد السلطان بدر بن عبدالله الكثيري (بوطويرق) الذي حدثت في عهده قصة «الشهداء السبعة».

وعندما ضعف حال الصليحيين انقسمت حضرموت إلى ثلاث نواح مستقلة هي تريم وشبام والشحر . فقامت في الناحية الأولى سلطنة آل قحطان (أولهم قحطان بن العوم بن أحمد المرى الحضرمي) ومركزهم مدينة تريم وقامت، في الثانية سلطنة آل الدغار (أولهم الدغار بن أحمد أبي العلاء بن مرداس الحضرمي) ومركزهم مدينة شبام ، وقامت في الثالثة سلطنة آل فارس (أولهم عبد الباقي بن فارس بن راشد بن اقبال الكندي الحضرمي) ومركزهم مدينة الشحر.

ولقد اضعف حضرموت هذا التقسيم السلاطيني وأثار فيها القلاقل والفتن لان أولئك الحكام الحضارمة راحوا يقتتلون فيما بينهم فساءت أحوال حضرموت وساد الظلم والبطش بالرعية.. ولم ينقذ الحضارم من ذلك التطاحن السلاطيني المزري إلا عثمان الزنجيلي حينما أطاح بالسلطانات الثلاث لفترة من الزمن.

فعندما استولى الايوبيون على اليمن، كان في مقدمة من ولاهم صلاح الدين الايوبي حكم اليمن القائد عثمان الزنجاري أو الزنجيلي (نسبة إلى قرية زنجيلة بسوريا) فغزا الزنجيلي حضرموت سنة ٥٧٥هـ وقوض أركان السلطنات الحضرمية.

لكن الحضارم عادوا وانتفضوا ضد الايوبيين سنة ٥٧٦هـ. فاستولى آل قحطان على تريم، وآل الدغار على شبام، وآل فارس (بعض كتب التاريخ تذكرهم بأسم آل إقبال) على الشحر. وعاد الايوبيون لاخضاعهم ولكنهم في النهاية اضطروا إلى ابقاء الحكام المحليين نواباً عنهم على السلطنات الثلاث، واكتفوا بتلقي رموز الولاء والاتاوات والرسائل المنمقة التي كان أدباء الحضارم يتفننون في كتابتها إلى الايوبيين ويحشونها بعبائر المديح والاطراء.

وعندما حاولت السلطنات الثلاث الامساك عن تقديم الأتاوات لوفد الايوبيون قائدهم عمر بن مهدي سنة ٦١٢هـ لوضع حد للتمرد الحضرمي. فاستولى ابن مهدي على مدينة الشحر بعد قتال مرير استنزف الجانب الاكبر من طاقته العسكرية، فعاد إلى اليمن بعد أن عين أحد قادة جيشه حاكماً على الشحر.

وفي سنة ٦١٥هـ عاد ابن مهدي بجيش كثيف، على حد تعبير الاخباريين، واتخذ سبيله من الشحر إلى حضرموت الداخل فأخضع آل قحطان وآل الدغار بعد ويلات شديدة حلت بالمنطقة.

ثم مالبث الايوبيون أن دب الوهن فيهم فقامت قبيلة كهد وطردتهم من حضرموت وحلت محلهم في الداخل والساحل. اما ابن مهدي فكان بين القتلى وكان ذلك سنة ٦٢٢هـ.

ولم يحسن بهد ادارة مملكتهم الجديدة لأنهم انقسموا على انفسهم متصارعين على خيرات مدينة الشحر الامر الذى شجع مسعود بن عامر بن لبيد الضبى، مؤسس سلطنة آل عامر، ان يحطم قوة بهد سنة ٦٢٤هـ وأستولى آل عامر على تريم وجعلوها مركز حكمهم.

أما الشحر، فان آل فارس كانوا هم الذين انتزعوها من بهد. وفى سنة ٦٢٦هـ داهمهم مسعود بن عامر، فصالحوه على اعطائه جانباً من ايراداتها (الشحر) فتركهم يحكمونها ويعتصرون الرعية له ولأنفسهم.

وعن هذه الفترة من التاريخ يقول المؤرخ الريان سالم عوض باصباع الشحرى فى كتابه «بهجة السمر فى أخبار بندر سعاد المشهر»:-

«السلاطين يتقاتلون ويتصالحون على أهل الشحر، وأهل الشحر مثل الغنم يغور فيها الذئاب وهى رابضة فى مكانها وكأن ماشئ يحصل فيجانه مقدر الامور».

ويقول: «سلاطين الشحر (فى جنب، والناس فى جنب) (١)، ماشئ يجمعهم، وبينهم عداوة لان الناس تشوف الحاكم سارق وطامع فى قوتهم وقوت عيالهم».

ويقول: «ان حد اصابه شئ من السلاطين قالوا أهل الشحر (دلفة(٢) أبوه وعاده قليل) لان الرحمة منزوعة من قلوب الحكام».

ويقول: «أهل الشحر أشتات (من كل قالب لغة) (٣)، مهره وعمانية و(حضارم) (٤)و (دواعن وشيامية) (٥) وبدو و(عمانية) (٦) وحجازية ومغاربة وهنود و(سواحلية) (٧) كلهم (شحارية) (٨) (بو عن جد) (٩) لكن (كل دجاجة على مرعاض) (١٠) مالهم رابطة و (كل (١١) من أخذ أمتاعو عمنا)، ومقادمتهم (تحت مركاب الدولة) (١٢)، وأهل الدرس (لعله يقصد رجال الدين) (كلين بحمر على قرصه)(١٣) و(كلين خايف على خميسه) (١٤) وصار (الدق والدقيق) (١٥) على رأس المسكين والعياذ بالله».

ويقول: (الخير باسط راسه) (١٦) في الشحر بلاد عظيمة مامثلها في حضرموت لكنها (بلا ديرة ولا سكان) (١٧) ، ومن هذا السبب نزلوا عليها الحكام مثل الجراد المنتشر (كلين يطرح في ثمانه) (١٨) والناس الزبان معاد لهم كلمة وكل واحد يجري فقا السحت (ياعال مالك مولى) (١٩) والله يعلم أيش النهاية وعسى العاقبة خير والله أعلم». *

(*) نقلنا عبائر الزبان باسباع بلهجتها العامية التي ألف بها كتابه. وقد أجاد رحمه الله تطريز كتابه بالامثال والاصطلاحات الشعبية الحضرمية. ومما ان فهم معاني تلك الامثال والاصطلاحات العامية قد يصعب على غير اليمنيين فقد رأينا تفسيرها فيما يلي اتماماً للفائدة:-

١- (في جنب والناس في جنب) أي انهم لا يجمع الناس بهم ولا ، ولا عاطفة.
٢- (دلفة أبوه وعاده قليل) أي في داهية هو وأبوه ، وذلك قليل في حقه.
٣- (من كل قالب لفة) أي انهم مختلفو اللهجات والجنسيات والمشارب.
٤- (حضارم) أي من أهالي وادي حضرموت.
٥- (دواعن وشبامية) أي من وادي دوعن ومن مدينة شبام.
٦- (يمانية) أي سكان اليمن الاعلى.
٧- (سواحلية) أهالي شرقي أفريقيا.
٨- (شحارية) أهالي الساحل الحضرمي (وكلهم شحارية) اصبحوا شحريين بحكم المولد او الاقامة الدائمة.
٩- (بو عن جد) أبا عن جد.
١٠- (كل دجاجة على مر عاشر) أي ان كل دجاجة تمسي بمفردها على احد مزاريب الماء، ويعني ذلك انهم لا يتفقون على هدف او قضية عامة.
١١- (من أخذ أمنا هو عمنا) أي انهم طائعون لكل من يتولى أمر مدينتهم ولو كان حاكما فاسداً.
١٢- (تحت مر كاب الدولة) أي خاضعون لاوامر السلطان ونواهيه.
١٣- (كلين يحمر على قرصه) أي كل واحد لا يروم الا مصلحته الشخصية.
١٤- (كلين خايف على خميسه) الخميس هو الاجر الذي يدفعه الاطفال كل يوم خميس للذي يعلمهم قراءة القرآن. أي ان كل واحد منهم خائف ان يحول السلطان بينه وبين المصالح والمكاسب التي يجنيها من وراء السلطان العابث.
١٥- (الدق والدقيق) الظلم والجور.
١٦- (الخير باسط راسه) الرخاء ضارب اطنابه في الشحر.

هكذا كانت حالة الشحر ، في تلك الحقبة ، كما وصفها الريحاني باسباغ (رحمه الله) بابلغ عبارة ورسمها بادق صورة.

وعندما قامت دولةالرسوليين باليمن حكمت الشحر بين سنة ٦٧٧-٨٣٦هـ.

وفي بداية حكم الرسوليين ،جهز الحبوظي على الشحر (سنة ٦٧٩هـ) بغرض طرد الرسوليين منها واحتلالها. ولكنه لم يكن موفقاً في مغامرته. والحبوظي هذا هو الامير سالم بن ادريس القفاري صاحب الصدقات المشهورة بحضرموت.

والحبوظي هو الذي مهد لال كثير سبيل الحكم في حضرموت ،فقد اقامهم عمالا على مملتكاته في وقت ابتدأ فيه آل كثير يتطلعون إلى أثبات وجودهم بين القوىالمتصارعة بحضرموت، وقد تم لهم ماأملوه بفضل المتحمسين والمتطلعين إلى السلطان من أبنائهم.

لقد كان حكم الرسوليين بالشحر حكما تأرجح بين القوة والضعف.. كانت العشائر الحضرمية تنازعهم السلطة داخل المدينة وخارجها وتعكر أمن البلد. فينزل بها الرسوليون العقوبة ، ولكن العشائر تعود فتشن الغارات المفاجئة ضدهم ، فيتصدى الرسوليون للمغيرين، ولكنهم لايلبثون ان يكروا على الرسوليين من جديد في صورة من صور لعبة القط والفار.

وفي النهاية ضعف شأن الرسوليين في شمال اليمن، وبالتالي ضعف حاكم في الشحر ، فهاجمهم الامير المهري محمد بن سعيد بن فارس الكندي حاكم حيريج والمكنى «أبو دجانه» فانتزع الشحر منهم سنة ٨٣٦هـ.وقامت محاولة

١٧- (بلا ديرة ولا سكان) الديرة هي البوصلة التي تسير على هداها الملاح في البحر ، والسكان هو دفة السفينة. أي ان الناس ليس لديهم من القادة من يوجههم نحو الصالح العام وان الفوضى شاملة في المدينة..

١٨- (كلين يطرح في ثبانه) الثبان شيء كقميص تعطفه وتثنيه فتجعل فيه ماشئت.. أي ان كل واحد يستغل الظروف السيئة لمصلحته الخاصة.

١٩- (ياهال مالك مول) أي ان المدينة سائبة وكل واحد يعمل فيها مايريد بسبب أهمال الحكام الطغاة..

فاترة من قبل الرسوليين لاستعادة الشحر ولكن تجمعهم قدقدر له الأفول فى جنوب وشمال اليمن، فلم يدركوا ما أرادوه.

وبعد ان أستولى ابو دجانه على الشحر حول مركز امارته اليها من حريض، وقد ساعده على أحتلال الشحر المئات من أبناء الشحر المهره وكانوا يشكلون شوكة فى جنب الحكم الرسول.

وعندما تم الطاهريين الاستيلاء على عدن سنة ٨٥٨هـ، ساروا على ذلك التقليد الذى سار عليه الصليحيون والايوبيون والرسوليون وهو احتلال الشحر واستغلال خيراتها. ولكن الصراع على السلطة الذى دارت رحاه بين أفراد الاسرة الطاهرية واضطراب الاحوال فى غير صالحهم فى شمال اليمن وعدن، لم يترك مجالا مناسباً لهم لتحقيق رغبتهم فى الاستيلاء على الشحر بالاسلوب الذى تمنوه.

لذلك فان أمير الشحر محمد بن سعيد أبا دجانه لم يحل دون سيطرة الطاهريين على الشحر فحسب ولكنه، بعد أن ظهرت له بوادر ضعف الطاهريين فى عدن وشمال اليمن، فكر ـ أيضاً ـ فى انتزاع عدن منهم.

وحاول أبو دجانه استغلال أحدى الفتن التى كان يثيرها جند الطاهريين ضد الطاهريين فى عدن، ومنها تلك الفتنة التى شب أوارها بين آل أحمد وآل كلد اليافعيين اللذين اختصموا على اقتسام المصالح الذاتية فى عدن.. بيد أن الطاهريين قضوا على هذه الفتنة بأن ناصروا آل أحمد ضد آل كلد ليحولوا دون وجود جبهة يافعية واحدة ضدهم، وطردوا الكلديين من عدن. فذهبت جماعة من آل كلد إلى الشحر، بزعامة الشيخ مبارك الكلدى، وحسنوا لأبى دجانه احتلال عدن ووعدوه بالعون العسكرى.

وفى الشحر قام خلاف شديد بين الأمير أبى دجانه وبين وزيره الفقيه الشيخ سليمان بن عبود بن تايه الشحرى حول غزو عدن، اذ لم يكن الوزير محبذا فكرة غزو عدن على الأطلاق، ولم يكن يرى لفكرة الغزو مايبررها وكان يرى فى تقوية دفاع الشحر عاصما لها من التعرض للهجمات الشمالية، كما

كان يرى مصالحة الطاهريين وخلق جو من حسن التفاهم والحوار معهم. وقد ساندت الوزير فى رأيه والدة أبى دجانه وهى سيدة وصفها مؤرخ معاصر لها بأنها ذات عزم وحزم. فلم يلتفت أبو دجانه إلى رأى وزيره، ولا إلى مأثراه أمه، والقى بالوزير فى السجن (٤) وعين محله وزيراً مهرياً من الذين كانوا يرون رأيه فى غزو عدن.

لقد استحوذت فكرة غزو عدن على مشاعر أبى دجانه لأنه كان يتوجس خيفة من غارة بحرية أوبرية يشنها الطاهريون على الشحر. فكان أن أقدم على غزو عدن كخطوة وقائية.

وهكذا كان له ولآل كلد، من غزو عدن، مقصدان متعارضين، اذ ان آل كلد ما أرادوا الا استعمال أبى دجانه لتحقيق حاجة فى أنفسهم ضد إخوتهم آل أحمد.

وفى سنة ٨٦١هـ تحرك أبو دجانة على رأس تجريدة بحرية، مكونة من المهرة والحموم وفئة صغيرة من يافع، منقولة على سفن المهره وسفن أهل الحامى.. ولكن حملة أبى دجانة تعرضت لعواصف بحرية فتشتت بالقرب من عدن. وجنحت عدة سفن منها على ساحل خور مكسر وكان أبو دجانه ومبارك الكلدى فى أحدى السفن الجانحة. فأسره الطاهريون وقتلوا الكلدى ويقول المؤرخ باعمرمة (٥) ان الطاهريين ادخلوا أبا دجانة إلى عدن على ظهر جمل وطافوا به شوارع المدينة فى موكب استعراضى ثم القوا به أسيرا فى سجن الخساف حيث مكث فيه زهاء عامين.

وفى الوقت الذى كان فيه أبو دجانه فى السجن، أوفد الطاهريون لاحتلال مدينة الشحر بقيادة الأمير زين الدين جياش السنبلى.. وبالنظر إلى الضعف الذى أصاب قوة أبى دجانة بعد المغامرة على غزو عدن، لم يلق القائد السنبلى صعوبة فى أحتلال نصف الشحر الشرقى (٦). أما الجزء الغربى فقد بقيت به والدة أبى دجانة (وهى من آل معاشر المهره) تقاوم تطلعات السنبلى لاحتلاله، واستمرت المناوشات بينها وبين السنبلى فترة من الزمن داخل مدينة الشحر.

وضع أهل الشحر من تردى الأحوال داخل مدينتهم فسعوا الى الطرفين المتحاربين بالمفاوضة وكان على رأس المفاوضين الشيخ سعيد بن عبد الرحمن مقهد الشحرى. وانتهت المفاوضة باتفاق يقضى بان يطلق الملك الظافر الطاهرى سراح الأمير أبى دجانة على ان يسافر رأساً من عدن إلى حيريج وعلى ان تتبعه أمه من الشحر إلى حيريج بعد وصول ابنها إلى تلك المدينة.

وفى سنة ٨٦٣هـ أطلق الملك الظافر سراح الأمير أبى دجانة ولحقت به أمه إلى حيريج وأستولى القائد السنيلى على كافة أجزاء مدينة الشحر.

وبعد أشهر قليلة من عودة أبى دجانة إلى حيريج استطاع ان يجمع حوله المهره والخموم وداهم بهم الشحر وانتزعها من الطاهريين فى نفس العام الذى أخرج فيه من سجن عدن.

وفى سنة ٨٦٦هـ هاجم الملك الظافر بن عامر بن طاهر الشحر بنفسه، فانسحب منها أبو دجانة وكان ذلك فى ليلة الجمعة ١٧ صفر ٨٦٦هـ ودخل مدينة الشحر الجيش الطاهرى الذى كان يقوده الأمير عبد الملك بن داؤد الطاهرى وأوسع المدينة نهباً وقتلا. وبعد يومين دخل الشحر الملك الظافر نفسه فأمر بايقاف النهب والقتل. وعلى أثر هذه الحادثة الدامية التى عمت الشحر أطلق أهالى الشحر تشيعتهم المشهورة والتى يرددها الشحريون إلى اليوم وهى (مافى آل طاهر طاهر).

ومكث الملك الظافر ثلاثة أشهر بالشحر ثم عاد إلى شمال اليمن. لمجابهة الاخطار التى ابتدأت تحدق بمملكته، تاركاً حكم الشحر لأحد قادة جيشه وهو الأمير أحمد بن اسماعيل بن سنقر.

وبالنظر إلى ما كان بين آل كثير – الذين ابتدأوا يكونون سلطتهم داخل حضرموت وظفار – وبين الطاهريين من صداقة، وبالنظر إلى ما كان بين المهرة وآل كثير من خصومة حول القوافل التى كان يسيرها المهرة إلى المناطق الواقعة تحت النفوذ الكثيرى، وعرقلة آل كثير تلك القوافل بفرض الرسوم الجائرة التى كانوا يتقاضونها على السلع المهرية التى كانت تنقلها تلك القوافل

فقد طلب الملك الظافر من آل كثير أعانة نائبه الأمير أحمد بن سقر فى إدارة شؤون الشحر.

وفى سنة ٨٦٧هـ سحب الظاهريون أميرهم أبن سقر من الشحر واستخلفوا عليها السلطان بدر بن محمد الكثيرى... وهذه هى المرة الأولى التى يحكم فيها آل كثير الشحر.

وفى هذه السنة (٨٦٧هـ) توفى السلطان محمد بن سعيد أبو دجانة فى حريج وخلفه ابن أخيه الأمير فارس بن مبارك الكندى وكان شاباً ذا طموح لايحد كما ذكر أحد المؤرخين.

فهاجم الأمير فارس مدينة الشحر وانتزعها من السلطان بدر بن محمد الكثيرى.

وفى سنة ٨٧١هـ استعاد السلطان بدر بن محمد الكثيرى الشحر من أبى دجانة، بيد أن أبا دجانة عاد واسترجعها من آل كثير سنة ٨٨٣هـ وبقى حاكما بها إلى ان انتزعها منه السلطان جعفر بن عبدالله الكثيرى (٧)سنة ٩٠١هـ وبذلك انتهى عهد آبى دجانة فى الشحر .وبعده تعرض كثير من المهرة للتنكيل فى الشحر على يد الحكام الكثيريين.

ومن الواجب ان نذكر هنا أن مهرة الشحر كانوا بين أبرز الجماعات العنية التى كانت تحتل الشحر وأوفرها علما وعملا.. فكان فيهم التجار والفقهاء والملاحون البحريون والحكام والقضاة والفلكيون. ومن مشاهير المهرة (أهل الشحر) فى ذلك العهد الفقيه الشيخ أحمد باعوين الحوهرى الذى سمى (حى باعوين) أكبر أحياء مدينة الشحر باسمه . ومنهم الفلكى والملاح الشهير الحكم سابان المهرى الذى عاصر الملاح العمانى الذائع الصيت ابن ماجد (٨). ومنهم الفقيه الشيخ سالم بن صالح باعوين، حفيد الشيخ أحمد باعوين، الذى سوف نسمع عنه أكثر فى صفحات قادمة من هذا الكتاب.

وفى سنة ٩١٠هـ تولى حكم مدينة الشحر السلطان محمد بن عبدالله ابن جعفر الكثيرى(وهو جد آل عبد الودود الذين كانوا يحكمون قرية «الريدة»

التى عرفت باسم «ريدة بن عبد الودود» فى المشقاص .ومحمد هذا هو الأخ الاكبر لبدر بن عبدالله الكثيرى الذى اشتهر بكنية (أبو طويرق)، وكلمة «طويرق» تصغير لكلمة «طارق» وهى كلمة حضرمية دارجة معناها الشخص الذى يطرق كل طريق أى يسلكه وبالنسبة للسلطان بدر تعنى أنه كان غازياً لم يترك طريقاً إلى منطقة حضرموت الا وسار فيها أما لكسب ود حكامها أو لاخضاعهم.

وفى سنة ٩٢٧هـ تنازل السلطان محمد لأخيه بدر أبى طويرق عن حكم الشحر وهو الذى حدثت فى عهده قصة الشهداء السبعة كما سيأتى تفصيل ذلك..

وصف مدينة الشحر كما كانت سنة ٩٢٩هـ

رقعة مدينة الشحر واسعة بالنسبة للسكان الذين كانوا يسكنونها وقد بلغ عددهم عشرين ألف نسمة تقريباً غير الغرباء (٩) الذين قدر عددهم بأثنى عشر ألفاً.

والمدينة مكونة من عدة أحياء متفرقة تفصلها عن بعضها ساحات واسعة يقال لها «الرقص» ومفردها رقيص وهى الساحة التى تستعمل لترقيص الخيل أو الابل فى الاعياد أو عند عرضها للبيع.

وكان للمدينة سور مبنى من اللبن النىء ارتفاع حائطه ثمانية أذرع وعرضه فى الغالب ذراع ونصف . وتمتد فى شمال المدينة من الشرق (من مكان غير معروف لنا الان) وينتهى فى الغرب فى منحدرات مسيال سمعون. وفى الناحية الشرقية كانت المدينة مسورة بخنادق عميقة وواسعة تمتد من الشمال إلى الجنوب خارج منطقة الرباط.

وللسور بوابات متعددة أكبرها «السدة» وتقع فى حائط المدينة الشمالى ويخترقها طريق يسمى «الطريق السلطانية» وتمتد هذا الطريق من ساحة السوق إلى «السدة» فى شارع شبه منتظم.

والمدينة من ناحيتها الغربية سور يبتدئ من منحدرات مسيال سمعون ويضم إلى داخله حى (الحور)[1] ثم ينتهى السور بعدد من الخنادق إلى شاطئ البحر.

وتقع على جدار السور الشمالى ثلاث قلاع، واحدة فى أقصى جدار السور الشرقى وتسمى قلعة (الراشدى)، والثانية فى وسط امتداد السور وتسمى قلعة (الرسول)، والثالثة فى نهاية جدار السور الغربى وتسمى قلعة (الكسوب).

وفى سور المدينة الغربى قلعة رابعة يقال لها قلعة (الحور).

أما على الساحل المدينة فهناك قلعة اسمها قلعة (الكودة)، وإلى الشرق منها قلعة أسمها (القديمة)، وإلى الجانب الغربى من قلعة الكودة قلعة أسمها (الشامية أو الشاميه) ولايعرف بالضبط موقع (القديمة والشامية) انما يفترض ان تكون (القديمة) فى حى (المخرف) وان تكون (الشامية) فى حى (الرملة)..

وبالمدينة حصون أخرى (١٠) أوردنا ذكرها فى حاشية من هذا الكتاب، أهمها حصن (البلاد) ويبدو ان موقعه فى المكان الذى تقوم عليه حديقة البلدية الان:

والمدينة مكونة من عدة أحياء رئيسية هى :-

(١) القرية :

جل سكانها من بحارة السفن وبناتها وعمال الشحن والتفريغ فى الميناء.

(٢) المخرف:

جل سكانها من صائدى الاسماك «وسميت المخرف لوقوعها على أجراف الطين المطلة على الشاطئ».

(٣) الرملة :

جل سكانها من صائدى الاسماك «سميت الرملة لوقوعها على كثبان الرمل الساحلية».

١- الحور بالحاء المهملة كما سيأتي ذلك فى صفحة قادمة.

(٤) الجزيرة :

جل سكانها من صائدى الاسماك سميت الجزيرة بتشديد الياء ـ تصغير جزيرة ـ لان مسيال سمعون ، الذى يخترق مدينة الشحر فى موقعين ويصب فى البحر ، يحيط بالجزيرة من الشمال والغرب والشرق ويحدها البحر من الجنوب

(٥) الخور «بخاء معجمة مضمومة» :

جل سكانها من صائدى الاسماك سميت الخور لانخفاض ارضها عن المنطقة التى تقع الى جانبها الجنوبى بحيث تحجبها عن رؤية الناظر اليها من شاطئ البحر .

(٦) الحور «بحاء مهملة مضمومة» :

جل سكانها من أغنياء البلد وتجارها الكبار ويسكنه عدد من رجال الدين والفقهاء وذوى الجاه الدنيوى . وفى تاريخ متأخر غير معروف سمى بأسم «الحوطه» مع ان الشحر كانت تضم عدة حوط (١١) تذكرها كتب التاريخ ولم تعين لها مواقع او أسماء . .

(٧) عقل باعوين :

سكانه من صغار التجار والحرفيين والعمال ، وجل سكانه من مهرة الشحر ومن الوافدين من المنطقة الواقعة بين القطن وقرية السوم فى وادى حضرموت . وتسكن هذا الحى ايضاً الجالية الهندية واكثرها هندوكية من طبقة «الفانياء» والهنيون يسمونهم «البانيان او البينيان» .

و«العقل» كما يبدو اسم قديم لايعرف معناه ، الا ان بعض اهالى الشحر يفسرون كلمة «العقل» بمعقل الابل ، ويزعمون ان هذه المنطقة كانت مبركا للقوافل قبل ان تصبح حيا سكنيا وتجاريا . وقد نسب هذا «العقل» الى الشيخ أحمد باعوين المهرى الذى سبق الحديث عنه وله فى هذا الحى مشهد يزار .

(٨) عقل باغريب :

سكانه من صغار التجار والحرفيين والعمال ، وجل سكانه من الوافدين من وديان حضرموت الغربية والكسر . ونسب هذا الحى الى الفقيه الشيخ سعيد

بن احمد باغريب صاحب المسجد المعروف بالشحر ، وتلميذ الشيخ عمر الحضار السقاف » ، ووالد الشيخ احمد سعيد باغريب ، وسوف نقرأ المزيد عن الشيخ احمد في هذا الكتاب . ويزعم بعض أهالي الشحر ان هذا الحي كان خاصاً بالغرباء الذين يصلون الى الشحر بحراً وبراً ، وان الغريب كان يجد كل ما يحتاجه من طعام ومأوى في انزال خاصة متوفرة في هذا الحي .

(٩) الرباط :

حي جل منازله أكواخ صغيرة مصنوعة من القش ومن جرائد النخل. ويسكنه البدو المستوطنون بالشحر وعمال اصطبلات «أهالي الشحر يدعونها طيل ومفردها طيلة» الخيل . وبهذا الحي المنتحى عن بقية الاحياء اربطة الخيل المستوردة من ظفار .

(١٠) المحط :

محط القوافل القادمة من حضرموت الداخل والذاهبة اليها . ويسكنه بعض البدو والعمال الذين يقومون بخدمة رجال القوافل . وفي المحط سوق كبير لحطب الوقود والفحم الخشبي وبه ايضاً معاصر زيت السمسم .

(١١) السوق :

ساحة واسعة تقع بين حي القرية وعقل باعوين وعقل باغريب والجزيرة وفي هذا المنطقة جل حوانيت البلد ومتاجرها الكبيرة ومستودعات البضائع والمطاعم ومنازل البحارة الغرباء الذين تضطرهم الرياح الموسمية وغيرها الى البقاء في الشحر ريثما تتحسن الاحوال الملاحية . وتتكون منطقة السوق من الأقسام التالية :

(١) سوق الخيل : وفيه تباع الخيل والابل والبغال والحمير .

(٢) سوق الغنم : ويكتبه الربان باسباع سوق الغلم وذلك ماينطلقه أهالي الشحر الى اليوم» وفيه تباع الاغنام والبقر .

(٣) سوق التمر : وفيه يخزن ويباع التمر المستورد والمحلي .

(٤) سوق الطعم : وفيه يباع علف البهائم .

(٥) سوق شبام : وفيه تباع الاقمشة المحلية والمستوردة والعطورات والحلى الذهبية والفضية واللوازم المنزلية والخردوات والمؤن الاخرى .

(٦) سوق العبيد: وفيه تعقد دورات فى مواسم معينة لبيع الرقيق المستورد والمحلى .

(٧) سوق اللحم والسمك :

(٨) سوق الطعام : وفيه تباع المحاصيل الزراعية المستوردة والمحلية وتباع الحلويات والفواكه المجففة والطرية والخضروات ومواد غذائية اخرى .

وفى الشحر عدد من حانات الشراب الذى يعصر محليا ، وفى المدينة ماخور ومرقص يديرهما احد الهنود بالاشتراك مع بعض اهالى الشحر .و الراقصات يجلبن من الهند ومن لامو لفترة ثم يعدن الى موطنهن الاصلى والبعض منهن يوالين السفر الى عدن والحجاز . والربان باسباع يطلق على الماخور والمرقص اسم «محلات الغرام والهيام والمدام» .

لقد كانت الشحر مركزاً تجارياً هاماً تفد اليه السفن من الهند وشرق أفريقيا والخليج العربى والبحر الاحمر والبرتغال وجنوب افريقيا وجنوب شرق آسيا والصين . فكان هذا الميناء يستقبل السلع الواردة ويستهلك القليل منها ويوزع الجزء الأكبر مع المنتوجات المحلية الى عدن وشمال اليمن والحجاز ومصر والعراق وصوماليا وشرق افريقيا والهند وغيرها .

وازدهرت الشحر بالصناعات المحلية ، فكان يصنع بها كل ما تحتاجه النجار والحداد والصياد والفلاح والملاح البحرى والجندى والطبيب والمدرس والطالب وصانع الحلى والاثاث المنزلى . .

كان المؤرخ البرتغالى كاستنهيدا Castanheda مرافقاً للحملة البرتغالية التى احرقت ونهبت الشحر ، وكان قد زار الشحر من قبل ، فكتب عنها فى سجلاته مايلى (١٢) :-

والشحر مدينة كبيرة بها الكثير والكثير جداً من التموينات كما توجد بها كل أصناف الفاكهة المتوفرة لديها في اسبانيا . . انها ميناء تجاري عظيم ، بها بضائع لاتحصى انواعها وبها أعداد كبيرة من الخيل وكميات من العطور والبخور . ويفد الى الشحر ، بين من يفدون اليها ، للتجارة المسلمون الهنود أهالي «الابار وكبايا»[1] . وفي هذا الميناء تقضي السفن فصل الشتاء لانها لاتستطيع المرور بباب المندب ولان الرياح الغربية تهب ضدها .

ويصف الربان بأسباخ مدينة الشحر بالنسبة لصناعة السفن الشراعية فيقول : الشحر في ١٤ درجة و ٤٤ دقيقة خط عرض وفي ٤٩ درجة و٣٩ دقيقة خط طول . . منتخها (١٣) جبل طيطب وهو في ١٤ درجة و٤٧ دقيقة خط عرض وفي ٤٩ درجة و٤٢ دقيقة خط طول . مطرحها (١٤) رملي مفتوح للريح على مدار السنة لذلك يستحسن دائماً (١٥) الطرح فيها بثويريبة (١٦) والطرح على رمى (١٧) ستة او ثمانية ايوع لان المطرح رق (١٨) . ومراحلها مناسب لشخط الزعايم الكمبارية (١٩) والمسمارية (٢٠) صغير وكبير . وفي الشحر توشر (٢١) الزعايم (٢٢) الكمبارية والمسمارية من كل شكل ، وفيها بحرية ونواخيذ (٢٣) وربابين (٢٤) ومعلمه (٢٥) ماهرين رجال بحر من اهل الشحر والحامي ، وفيها جميع آلة السفينة من نالية (٢٦) وحبال وأخشاب ودقال وسناقل (٢٧) وشرع وبراوصة (٢٨) . الاشرفي (٢٩) كل شئ يوجده لك في الشحر من آلة السفن ، وفي الشحر مير بحر « أمير البحر» يقوم بما يلزم للسواحي الواصلة ويوخذ مكوس السلطان وهو رجل حكيم يعلم تمام قواعد البحر وقوانينه ويحكم في النوازع «لعله يقصد المنازعات» كلها ذي تصير بين أهل السفن على قواعد الشحر والهند وعمان . والماء موجود والحطب ويوجد ناس مخصصين لتجهيز (٣٠) السفن وتشطيبها (٣١) ونازل وطالع على خيرة ما يكون لمن يريد يشتي او يتوه (٣٢) او يدعك (٣٣) او يداوي صنبوقه (٣٤) ويوجد رجال كفارة (٣٥) عند الحاجة . .»

١- كبايا هو الاقليم الهندي المعروف باسم جوزرات.

وبهذه الطريقة الواضحة التي تقرب من فن الاعلان التجاري والتشويق السياحي يصف الربان باسباع التسهيلات التي توفرها مدينة الشحر للسفن الشراعية . وقد فسرنا الكلمات والاصطلاحات البحرية الدارجة ، الواردة في وصف الربان ، في فصل الحواشي الملحق بهذا الكتاب .

وانه لمن المدهش ان تظل مدينة الشحر محتفظة بمكانتها التجارية المرموقة رغم الهزات العنيفة التي تعرضت لها نتيجة للاقتتال عليها ، وهي كالغانية التي لايكفّ العشاق بالتصارع عليها ولكنهم ايضاً يلعنون بها بعض الكلمات او الخدوش والرضوض .

ان ما حدث لمدينة الشحر من تخريب لم يكن بدعا في تاريخ المدن اليمنية قديمها وحديثها . وان ما يحدث لتلك المدن يصور الاساليب التي يقف بها ذوو القوة والجبروت أزاء حلّ المشكلات التي كانت تعترض اطماعهم او تهدد استمرار سيطرتهم ونفوذهم . وان تصرف اولئك الحكام لم يكن الا نتاجا لطبيعة ونوعية المجتمعات التي كانوا يشكلون ، في تصرفاتهم ، صورة لها .

وقبل ان يشن البرتغاليون غارتهم الانتقامية على مدينة الشحر سنة ٩٢٩هـ (١٥٢٣م) ، فأن هذه المدينة تعرضت لغارات شنها الحكام والجنود المحليون عليها . ومن تلك الحوادث ، على سبيل المثال ، انه :—

سنة ٥٧٥هـ

دخل جيش عثمان الزنجيلي مدينة الشحر ، على عهد آل راشد « آل فارس » فنهب الشحر وأحرق جانبا منها وقتل اناساً كثيرين . بينهم عدد من الفقهاء والقراء [١] .

سنة ٥٩٩هـ

حاصر السلطان عبدالله بن راشد فتعرضت المدينة للنهب .

١— قال الجندي في تاريخه : لقد كنت لما قدمت عدن ورأيت ماوقفه هذا الامير على الحرم والمسجد فكنت استعظم قدره واستكثر خيره حتى وقفت على ماذكره ابن سمره من قتله الفقهاء والقراء فصغر وحقر مافعله من خير في جنب مافعله من شر . (تاريخ ثغر عدن لابي مخرمة).

سنة ٦٠٧هـ

زحف على الشحر جيش الغز «وهم جنود الايوبين وكانوا خليطاً من الاتراك والمصريين» فطردوا حامية الشحر منها واوسعوا المدينة نهبا وتخريباً حتى قبل ان موكب جنازة الشيخ سعد الدين محمد بن علي الظفاري الشحري الملقب بتاج العارفين الذي مات بالشحر في هذه السنة تعرض للاضطراب على يد الجنود الغز ، وكان الشيخ سعد ذا مكانة كبيرة عند اهالي الشحر .

سنة ٦١٦هـ

زحف جيش عمر بن مهدي على الشحر وطرد منها حكامها آل راشد (٣٦) ونهب المدينة .

سنة ٦٢٦هـ

زحف على الشحر جيش المسعودي مؤسس دولة آل يماني فنهب المدينة وذلك على عهد السلطان عبدالرحمن بن راشد (٣٧) .

سنة ٦٤٧هـ

دب خلاف بين جنود الامير نور الدين الرسولي فاتخذت تلك الحامية ذلك النزاع ذريعة لنهب الشحر .

سنة ٦٩٤هـ

نهب جيش المظفر الرسولي الشحر .

سنة ٧٦٨هـ

حاصر آل يماني الشحر في عهد اميرها داود بن خليل الحكاري الرسولي ونهبوا جانباً منها ثم احرقوه .

سنة ٧٨٣هـ

هاجم آل يماني الشحر وطردوا الحامية الرسولية منها وتعرضت المدينة للنهب .

سنة ٧٩٥هـ

دب خلاف بين آل يماني في الشحر فنهبوا البلد. وعلى اثر ذلك استولى

على الشحر الامير محمد بن ثور بن حسن الكردى القضاعى. وقبل ان ينقضى العام قامت حامية بن ثور بنهب المدينة على اثر خلاف نشأ بينها وبين الامير بن ثور .

سنة ٨٣٨هـ

حاصر جيش الامير المحفل الرسولى الشحر ونهبها واشتركت معه فى النهب جماعات من سيبان ونهد كانت مجندة له . وذلك على عهد الأمير ابى دجانة .

سنة ٨٥٩هـ

هاجم الطاهريون مدينة الشحر على عهد ابى دجانة ونهبوا البلدة .

سنة ٨٦٣هـ

هاجم الشحر الامير بدر بن محمد الكثيرى ونهبها ثم انسحب منها على عهد ابى دجانة .

سنة ٨٦٦هـ

هاجم الشحر الظافر الطاهرى ونهب الشحر واحرق جانباً منها بعد ان ان انسحبت من المدينة قوة الامير ابى دجانة .

سنة ٨٦٧هـ

هاجم الشحر الامير فارس أبو دجانة ونهبها ، وكان ذلك على عهد الامير بدر بن محمد الكثيرى الذى نصبه الطاهريون ثانياً عنهم على حكم الشحر .

سنة ٩٠١هـ

هاجمت الشحر جيوش آل كثير ونهبوا البلد وطردوا أبا دجانة منها .

وعلى هذا الاضطراب فى الامن وعدم الاستقرار السياسى يعلق الربان باسباع بقوله : « الناس فى هذه الديرة والفين دخول ذا الامير وخروج ذاك ذى هم يتقاتلون على خيرات البلد . والمصايب تقع على روس أعوان الامراء وبطانتهم من تجار وعسكر ، والناس الباقين سلم كلين فى طريقه وفى عمله . . وأهل الشحر اذا جاء أمير جديد ضحكوا له واذا انهزم ضحكوا عليه . .

وطول عمارهم يدعون ربهم بقولهم اللهم اصلح من فى صلاحه صلاح المسلمين يعنى هم المسلمين واذا الحاكم وافق مزاجهم قالوا من أحد أمناهو عمنا والضعف فيهم حده والله أعلم » . .

كانت الشحر تضم خليطاً من الجنبين وغير الجنبين . . وكل غاز من الغزاة كان يجد بين أهلها من يتطلع الى قدومه ويتمنى العيش فى كنفه ليدور حيث دارت مصلحته اولا ثم مصلحة الحاكم الوافد ثانياً . . وكل أمير جديد يتولى الحكم لا ليصلح اموراً أفسدها سلفه ولكن ليضيف فساداً على فساد فى الأرض . . كان مفهوم الحكم عند معظم الولاة الذين تولوا شؤون مدينة الشحر سيطرة ومتعة وكسباً وجاهاً ، ولا عبرة بمسجد او مدرسة قرآنية او سقاية ماء يقيمها أمير فى عهده تحت ضغط أعوان له او نزولا عند رغبة المقربين اليه من المشبعين بروح المنفعة العامة وكانوا أقل من القليل .

ومنذ عصر الامام الفقيه المقدم ابى علوى جمال الدين محمد بن على العلوى (٥٤٧ — ٦٥٣هـ) اجتاحت حضرموت ، داخلها وساحلها ، موجة تصوف كانت تعبر عن الزهد الايجابى فى الدنيا ، ولعل سوء الحكم فى حضرموت كان الدافع الأول الى هذه العزلة الروحية عن شؤون المجتمع المادية . ولم يكن التصوف الحضرمى كله زهداً فى مناهج الحياة او ابتعاداً عن جادة الحكم الرشيد ولكنه كان يأساً فى صلاح الحكام . . فكانت ارشادات المصلحين تصادف آذاناً صماء ونفوساً مصدودة عن الحق والعدل اذكان ذوو السلطان اقل تأثراً مما كان يدعو اليه الصوفيون من صلاح واصلاح ، وما كان منهم الا ان اغرقوا أنفسهم ومناطق نفوذهم فى الفتن والتطلعات الدامية الى التسلط والبطش .

وكانت كثرة الصوفيين ومن سار على طريقتهم من أهل الخير رد فعل معقول ، فى نظر البعض لسوء الحال السياسى ولطغيان الحكام فى حضرموت . . ومن هنا زادت اعداد الاضرحة والخلوات فى الشحر وخصصت الصدقات للقيام بشؤونها . وأما المساجد التى كانت عامرة فى مدينة الشحر سنة ٩٢٩هـ هى :

(١) مسجد الجامع « بالقرية » .

(٢) مسجد الشيخ عبدالله مول الخطة « بالقرية » .

(٣) مسجد الشيخ سعد الدين الظفاري «بالخرف» .
(٤) مسجد الشيخ فضل بن عبدالله بافضل «بالحوره».
(٥) مسجد الشيخ عمر الحضار السقاف «بحافة الحوره» .
(٦) مسجد الشيخ عبدالله بن أسعد اليافعي[1] «بالحور — الحوطة» .
(٧) مسجد الشيخ عبدالرحيم بن عمر باوزير «بالحور — الحوطة» .
(٨) مسجد الشيخ حسين باهراوة «باقرين» «عقل باغريب».
(٩) مسجد الشيخ سعيد بن احمدبن سعيد باغريب «عقل باغريب» .
(١٠) مسجد الشيخ عبدالرحمن بن مزروع «القرية — مكانة لايعرف الان» .
(١١) مسجد الشيخ عبدالله بن احمدبن أحمد باسرومى «القرية — مكانه لايعرف الان» .
(١٢) مسجد الشيخ ابراهيم الدبئى بافضل «عقل باعوين» .
(١٣) مسجد الشيخ أحمد بن عمر ان «عقل باعوين» .
(١٤) مسجد الشيخ محمد بن على بازيراك «القرية» .
(١٥) مسجد الشيخ سعيد بن عمر بالحاف «الخرف» .
(١٦) مسجد الشيخ احمد بن قضيمى (٣٨) «عقل باغريب».
(١٧) مسجد الشيخ عبدالرحيم بن سعيد باوزير «الحور — الحوطه».
(١٨) مسجد الشيخ سيف الدين الكهالى «تذكر سجلات الاوقاف بمدينه الشحر ان هذا المسجد موقعه حافة القرية» .
(١٩) مسجد الشيخ احمد بن عبدالبارئ العالبى «عقل باعوين» .
(٢٠) مسجد الشيخ عبدالله بن محمد باسبوعه «عقل باعوين — مكانه لا يعرف الان».
(٢١) مسجد الشيخ احمد «العتيق» بن عبدالله بالحاج بافضل «عقل باعوين» .

---

١ — تذكر أحدى الروايات التاريخية ان الذي انشأ هذا المسجد هو ابنه عبد الرحمن بن عبدالله اليافعي .

(٢٢) مسجد الشيخ احمد بن جوبان « الرباط » .
(٢٣) مسجد الشيخ عمرو بن أحمد «عقل باعوين» .
(٢٤) مسجد الشيخ احمد بن عمر الديبي «باذيبب» « عقل باعوين» .
(٢٥) مسجد الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس « عقل باغريب» :

والمساجد المرقمة (١) و(٧) و(٨) و(٢٢) و(٢٤) كانت بها مدارس قرآنية ملحقة بها ، وذلك اضافة الى مدارس « كانت تعرف بالزوايا» تقدم دروساً في الفقه واللغة العربية كزاوية باغشير وباعامرو باعديلة وباسير وباهارون.

والذي وقفنا عليه عن تاريخ مسجد الجامع الذي بناه كندة في القرن الاول الهجري انه :

في سنة ٢٠٧ هـ جدد عمارته الشيخ محمد عبدالعليم باصديق احد تجار الشحر .

وفي سنة ٥٧١ هـ جدد عمارته الفقيه الشيخ عبدالله بن سعدباذخار الشحري

وفي سنة ٧٨٢هـ جدد عمارته ووسع رقعته الامير الرسولي محمدبن احمد بن الحاجب القضاعي .

وفي سنة ٨٤٦ هـ جدد عمارته الفقيه المحدث الشيخ احمد بن قضيمي في نفس السنة التي أقام فيها مسجده السالف الذكر .

وفي سنة ٨٦٥ هـ اوقف الشيخ حسين بن عبدالرحمن بن سهيل اربع فردماء لعيان الحرث بغيل باوزير ١.

وفي سنة ٨٩٦هـ اخرج الشيخ القاضي عبدالله بن محمدبن عيسى الشحري ٢ وقف الجامع من «تحت يد الدولة» وكاد ان يتطمس وأنشأ بجانبه مدرسة تولى

١- فرد مقرودها فردة وهي سقي أربع وعشرين ساعة من كامل ماء معيان الحرث.

٢- اشتغل بالتدريس والفتوى بالشحر ثم تولى القضاء بها وعرف بالعدل والنزاهة وكان يضرب به المثل في حضرموت في حسن الخط وقيل عنه انه لا يتناول اجراً على واجبات القضائية توفي بالشحر سنة ٩٠٧هـ ودفن بتربة الشيخ فضل.

التدريس فيها الشيخ الفقيه عبدالله بن عبدالرحمن بالحاج بالفضل اضافة الى توليه الخطابة في الجامع والامامة في مسجد الشيخ احمد بن عمران السالف الذكر

وفي سنة ٩٠٠ هـ جدد عمارته الشيخ القاضي عبدالله بن محمد بن عبسين وقد اوردنا في فصل الحواشي (٣٩) نلاحق بهذا الكتاب ما طرأ على مسجد الجامع من تجديد منه سنة ٩٣٤ هـ الى يومنا هذا . .

وكان امام وخطيب مسجد الجامع ابان الغارة البرتغالية على مدينة الشحر الشيخ الفقيه احمد بن محمد السبّي المتوفى بالحامي سنة ٩٤٧ هـ . . وهو اول خطيب يؤمر بذكر السلطان بدر ابي طويرق في خطبة الجمعة بالشحر وذلك سنة ٩٢٧ هـ.

مدينة الشحر وقرية الحامي

تلك الصورة تقريبية لما كانت عليه مدينة الشحر عندما هاجمها البرتغاليون سنة ٩٢٩ هـ ، وقد اوردناها لنجعل منها ارضية خلفية لما سنوضحه في حينه عن تلك الغارة . بيد ان الصورة سوف تبقى ناقصة اذا لم نذكر شيئاً عن قرية الحامي التي تبعد حوالي عشرين ميلا شرق الشحر .

قرية الحامي كانت تعرف قديما بأسم « عطار » وهي اطلال الان . وفي حقبة مجهولة من التاريخ انشأ اهل الحامي لانفسهم قرية جديدة تعرف اليوم بأسم «البلاد الفوقية» وتقع على بعد ميلين تقريباً الى الشمال الشرقي من قرية الحامي الحالية التي أقيمت على نقطة من الساحل تعرف قديماً بأسم «الظهار» . وقد سميت القرية بالحامي نظراً الى ينابيع الماء المعدنية الحامية الموجودة بها .

ان «البلاد الفوقية» التي شهدت احداث قصتنا ، لا تشاهدها السفن من عرض البحر رغم قربها من الشاطئ ، لانها مخفية بين تلين احدهما يسمى «جبل المقده» ويقع الى الغرب من القرية ، وثانيهما يسمى «القارة» ويقع الى شرقها . وحوالي القرية الى الشمال تمتد احراش النخيل والمزارع التي يملكها الاهالي والتي تسقى من ينبوعين يسمى احدهما « معيان باشحري» ويسمى الاخر «معيان باحامي» .

وقد عاش فى تلك القرية ، التى لم يزد سكانها على الف نسمة ، خيرة الملاحين البحريين اليمنيين الذين كانوا عماد الملاحة البحرية الجنوبية عبر التاريخ . . وقد تعرض هؤلاء لاعنف انواع القرصنة البرتغالية كما سيأتى تفصيل ذلك فى فصول قادمة من هذا الكتاب .

واحتفظت قرية الحامى ، دون بقية الموانئ اليمنية الجنوبية بمرية انجاب مشاهير الملاحين البحريين وفى مقدمتهم القبطان الشيخ سعيد بن سالم باطايع الذى شرحنا منظومتيه الملاحيتين (٤٠) ، المشهورتين فى الاوساط البحرية ، فى كتاب خاص اسميناه « الرفيق النافع » .

لقد عرف اهالى الحامى ، عبر تاريخهم ، بروح المغامرة البحرية ، وهم يعرفون فى منطقة الشحر بأنهم ذوو الحرف الاربع . . اى ان ابن الحامى ملاح بحرى وصائد سمك وفلاح وتاجر صغير ، الا أن كفاءته كملاح تفوق مؤهلاته التقليدية الاخرى .

كانت قرية الحامى ، على صغرها ، مثار اهتمام رجال البحر من الحضارمة وغيرهم ، ومثار نقاشهم ، لان اهالى هذه القرية ، على قلتهم ، كانوا الى منتصف القرن الهجرى الحالى يملكون اسطولا تجارياً من السفن الشراعية قدر بأكثر من خمسين سفينة عابرات المحيطات . ويعتبر بحارة الحامى وملاحوها فى طليعة الملاحين اليمنيين ممارسة وانضباطاً وتمتعا باللياقة البحرية . . وقد برز منهم مشاهير ، تحدثنا عنهم فى كتابنا شخصيات لاتنسى ، من امثال الملاح العبقرى عوض بن احمد بن عروه (١٢٦٢–١٣٣٣هـ) والملاح عمر عبيد باصالح (١٢٨٠ – ١٣٦١ هـ) والملاح محمد عوض عبديد (١٢٨٢ – ١٣٥٨هـ) والملاح المعاصر محمد بن عبدالله باعباد «٨٠ عاماً» .

ولعب اهل الحامى دوراً رائعاً فى ملاحة اليمن الجنوبية منذ فجر التاريخ : : فهم الذين كانوا يسيرون الخط التجارى القديم بين الشحر والهند والخليج وشرق وجنوب افريقيا . . ولعل المؤرخين العرب كانوا يعنون اهل الحامى عندما تحدثوا ، بصورة عامة ، عن أهل الشحر أن لهم ميلا لعلم النجوم . .

وذلك لأن أهالي الشحر رغم ولعهم بالملاحة البحرية لم يبرزوا – بعد الملاح الحكم سليمان المهري – بروز أهل الحامى فى الاهتداء بالنجوم فى أعالى البحار والملاحون ، من أهل الشحر ، الذين اشتهروا فى العصور المتأخرة ، كأمثال عبدالله محمد مدي ومحسن عبدالحبيب بويك ، انما تلقوا تدريبهم النظرى والعملى على أيدى ملاحين من أهل الحامى كما يحدثنا الشيخ سعيد على بامعيد فى كتابه «زاد الاسفار»[1].

أن دور أهل الحامى أيام أشتداد الوطأة البرتغالية على موانئ الجنوب العربى دور لا ينكر . فأهل الحامى كانوا يمثلون الجزء الأكبر من تجارة السفن الشراعية التى كانت تناوش القراصنة البرتغاليين . وأهل الحامى هم الذين شاركوا فى نقل النجدة العسكرية التى بعث بها السلطان محمد بن عبدالله الكثيرى إلى الأمير مرجان الظافرى للاشتراك فى الدفاع عن عدن ضد الغزو البرتغالى سنة ٩٢٢هـ (١٥١٦).

ورغم الأخطار المدمرة التى تعرضوا لها على أيدى القراصنة البرتغاليين ثم الهولنديين ظل أهل الحامى يجوبون البحار بسفنهم الشراعية ، من خليج البنغال إلى خليج السويس ومن مشارف ناتال بجنوب أفريقيا إلى ميناء البصرة ، وبذلك أبقوا الخط الملاحى الشهير المعروف بخط مسقط – الشحر – المخا مفتوحا للتجارة بين جنوب بلاد العرب والعالم الخارجى .. وذلك شرف سجله التاريخ لهم دون غيرهم من اليمنيين فيما بعد . لقد تعرض أهل الحامى للقتل والأغراق والأختطاف والاحراق والامترقاق على أيدى البرتغاليين ، ولكنهم لم تلن لهم قناة ، وفيهم قال الشاعر الشعبى سالمين بن عمر بن مسلم الشحرى (توفى عام ١١٩٤هـ) :

بن مسلم قال بالناظور خـايل ساعيـه
نخـت مـن زنجبـار
وسطهـا شبـان ذى ما يحسـون التالية
يطعمـون الحلـو قـارا!

١– ص ٩٤ (زاد الاسفار) لبامعيد.

تخطيط الغرب للاستيلاء على الشرق

كانت للشرق – كما هو معلوم – تجارة واسعة مع أقطار ما يعرف اليوم بالشرق الأوسط وأقطار حوض البحر الأبيض المتوسط .... وكانت مصادر تلك التجارة الواسعة بلاد الهند وأندونيسيا والملايو والفلبين والصين وأخيرا – وليست بأقل أهمية – بلاد العرب.

فكانت السلع المختلفة ، وفي مقدمتها العطورات والحرير والبهارات ، ترد من الأقطار الآسيوية المذكورة إلى مدينة حلب ، سوريا ، عن طريق الخط البحري الذي يخترق الخليج العربي من المحيط الهندي إلى ميناء البصرة، ثم ترحل من البصرة إلى حلب ومنها إلى البندقية بايطاليا التي كانت أعظم الأسواق الاوروبية وأكثرها استهلاكا للمنتجات الشرقية ويمون البندقية خط تجاري آخر وهو الخط البحري الممتد من المحيط الهندي فالبحر العربي فالبحر الاحمر إلى ميناء السويس فالاسكندرية.

ومن الأسكندرية توزع خيرات الشرق في خطين احدهما يتجه إلى المغرب العربي فاسبانيا والبرتغال ، والآخر يتجه إلى البندقية فالأقطار الاوروبية الأخرى.

وإضافة إلى السلع الشرقية كانت هناك البضائع المصدرة من الموانئ الأفريقية الشرقية ، وهذه كانت تشحن إلى البصرة وإلى السويس في تجارة نشطة مربحة.

وكان الأسبان والبرتغاليون ، وهم ملاحون بحريون ذوو كفاءة ممتازة ومهارة فائقة ، ينظرون بعين الحسود الشرة إلى ذلك التبادل التجاري الضخم الذي كان يدر على أربابه أرباحا طائلة.

وكانت السفن الشراعية العربية – وخاصة اليمنية الجنوبية – والعمانية تمثل أهم وسائل النقل البحري لتلك التجارة المغرية إلى حيث يتم توزيعها وتصريفها. وتتكون السفن العربية من السفن اليمنية (الحضرمية والزبيدية) والعمانية والكويتية.

وكانت فكرة السيطرة على تجارة الشرق تراود بل وتلح بشدة على الأسبان والبرتغاليين .

وقبل أن يتم طرد آخر عربي من غرناطة بالاندلس سنة ١٤٩٢م على يد الملك الاسباني فرديناند الخامس ، كان الملاح البرتغالي بورتولوميو دياز دي نوفاز قد تمكن سنة ١٤٨٨م من إكتشاف الطريق البحري ، حول رأس الرجاء الصالح ، المؤدي إلى شرق أفريقيا . وبهذا الاكتشاف العظيم أصبح الطريق البحري من البرتغال إلى الهند مفتوحا أمام البرتغاليين .

والحقيقة التاريخية هي أن الملاح بورتولو ميو لم يكن أول من دار حول رأس الرجاء الصالح .... فقد سبقه إلى هذا الدوران من المغرب إلى الشرق وبالعكس ملاح عربي آخر في أجواء سنة ١٤٢٠م من المحيط الأطلسي حول القارة الأفريقية فظهر بالمحيط الهندي . ولقد أشار إلى هذه الحقيقة العالم الجغرافي فرامورو Fra Mauro في مصورة الجغرافي الذي وضعه سنة ١٤٥٧م ... وفي كتاب « جغرافية الأقاليم السبعة » الذي وضعه ابن سعيد الغرناطي سنة ١٤٥٠م جاء أن ملاحا عربيا يدعى أبن فاطمة دار حول أفريقيا من الغرب إلى الشرق ووصف سواحل السنيغال ومدغشقر في ذلك الوقت .

لقد أثارت رحلة بورتولو ميو أطماع المغامرين البرتغاليين في التجارة الشرقية .

وفي سنة ١٤٩٢م قام كريستوفر كولومبس (٤١) ، بتشجيع من الأسبان ومؤازرتهم ، برحلته التاريخية الشهيرة إلى الجزء الغربي من العالم ، والذي كان مجهولا آنذاك ، على أمل أن يجد ، عبر ذلك الاتجاه الذي سلكه ، طريقا بحريا جديدا وقريبا يسبق به البرتغاليين إلى الهند .

وعاد كولومبس إلى أسبانيا ولم يستطع الوصول الى الهند كما كان يؤمل .. ولكنه أكتشف عدة جزائر على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي وأطلق عليها أسم جزائر الهند الغربية إلى آخر ما ورد في السجلات التاريخية

المعروفة عن رحلته التى كانت فاتحة عهد (كتشاف العالم الجديد – أمريكا .

وعند عودته إلى أسبانيا لم يأت كولومبس بشئ من السلع التى عرفت عن الشرق كالحرير والبهارات ، كما أن بصره لم يقع على واحدة من المدن الشرقية التى كان الأسبان والبرتغاليون يسمعون عنها والتى ألهبت خيالهم فتلهفوا إلى مشاهدتها والسيطرة عليها .

وأزعج البرتغاليون كثيرا للنجاح الذى حققه كولومبس فى مجال الكشف الجغرافى ، الا أنهم قرروا أن رحلته قاشلة من الناحية الأقتصادية ، لأن كولومبس حسب تقديرهم للموقف ، لم يضع يده على منابع ثروة الشرق التى كانت محط آمالهم ومحور تطلعاتهم التجارية .

وفى ٧ جون ١٤٩٤ م ، أى فى السنة التى أكتشف فيها كولومبس جزيرة جامايكا في رحلته الثانية الى الساحل الغربى من المحيط الهندي أبرم الأسبان والبرتغاليون ، فيما بينهم ، اتفاقية عرفت فى التاريخ باتفاقية توردسيلاس Tordesillas ، وأقتسم الجانبان المتعاقدان بموجبها حقوق الأكتشاف فى المناطق الجديدة من العالمين الشرقى والغربى[1]. ففى الغرب الجديد نصت الأتفاقية على أن للبرتغاليين الحق فى الأكتشاف فى المناطق الواقعة أسفل خط الاستواء ولذا ، والشئ بالشئ يذكر ، كان أقليم البرازيل – مثلا – لدى أكتشافه من نصيب البرتغاليين لان معظم أجزائه تقع أسفل خط الاستواء .

والمقصود بكلمة « أكتشاف » فى إتفاقيتهم التملك والسيطرة والاستغلال أو بمعنى آخر جامع « الاستعمار » .

وتمتعا بما كانت قد منحته اتفاقية توردسيلاس من أمتياز لبلاده ، أمر الملك يوحنا الثانى – ملك البرتغال – بالقيام برحلة استكشافية إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح منافسة منه لرحلة الملاح الايطالى كولومبس .

---

١ – دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٦٣م .

فأعد البرتغاليون العدة لهذه الرحلة بكل عناية وأختاروا رجالها من كبار مغامريهم وأشدهم بسالة وقسوة .

وقبل الشروع فى هذه الرحلة مات الملك يوحنا الثانى فخلفه على عرش البرتغال دوق بيجا ، الملقب بالمحظوظ الموفق ، وكان ذلك سنة ١٤٩٥م . وأطلق على عاهل البرتغال الجديد أسم عمانوئيل الاول .... ثم ، لاسباب سوف ندركها من سياق الحوادث التى يرويها هذا الكتاب ، أطلق الملك الجديد على نفسه لقب (سيد الفتوحات والملاحةالبحرية والتجارية مع الهند والحبشة وبلاد العرب وفارس).

وكان عمانوئيل هذا رجلا طموحا ، واوتوقراطيا شرسا .... وانه لمن شدة طموحه فى الاستيلاء على عرش اسبانيا انه تزوج الأميرة مارى أبنة الملك فرديناند الخامس من زوجته الملكة ايزابيلا ... وهكذا فأن مطامع عمانوئيل فى الملك والتملك الاوسع نطاقا لم تكن مقتصرة فقط على مناطق معينة فى المشرق ، بل أن الأمل كان يداعبه حتى فى الاستيلاء على عرش اسبانيا .

وفوق ذلك فقد كان الملك المحرك الاول للاحداث التمهيدية التى جرت فى حوض المحيط الهندى ، والتى أدت بالنتائج إلى الغارة الانتقامية البرتغالية على مدينة الشحر .... ويدلنا ما حدث على الكيفية المذهلة التى تمسك حوادث التاريخ بعضها برقاب بعض ، أو على الطريقة التى تكون هذه الحادثة مفضية إلى نشوء تلك الحادثة ، حتى ولو ظهر لنا بعد الأسباب والمكان ، الذى يفصل أى حادثة عن الاخرى .. وقديما قال المثل الحضرمى الشعبى : (حريق فى الهند ، قال ساكن حضرموت أجارنا الله شره) ؛ لذلك فأن أهالى مدينة الشحر لم يكن يدور بخلدهم أن رحلة كلومبس لإكتشاف أمريكا كانت أحدى العوامل التى ساعدت على تعرضهم للغارة البرتغالية الأنتقامية المشؤومة :

وسعيا منه إلى تحقيق ما كان قد انتواه سلفة الملك يوحنا الثانى صار

الملك عمانوئيل قدما فى التشجيع على الرحلة الاستكشافية وهيأ لها كل الوسائل وأشرف بنفسه على تفاصيلها وناقش مع رجاله وقائعها وإحتمالاتها وأبعادها.

وكانت النتيجة انه فى ٨ يوليو ١٤٩٧م أبحر الملاح البرتغالى المغامر فاسكو دى جاما (Vasco de Gama) من ميناء لشبونه قاصدا الهند تصحبه أربع سفن شراعية كاملة التجهيز.

بداية المسرحية الاستعمارية في شرق افريقيا

وصل فاسكو دى جاما إلى ميناء سوفاله فى أقليم الموزنبيك الأفريقى، وبعد إقامة إستطلاعية قصيرة فى هذه الميناء اتجه الى ميناء كلوه ومنها أتجه إلى ميناء ممباسا وأخيراً القى مراسيه فى ميناء ماليندى فى الخامس عشر من شهر مارس ١٤٩٨م.

كانت تلك الموانئ الافريقية خاضعة لحكام تمنيين – من حضرموت والشحر – وعرب آخرين كما أورد ذلك المؤرخ ابن الوردى (٤٢). وعلى الرغم من أن زيارة دى جاما لتلك الموانئ كانت أشبه ما تكون بزيارة الغريب المهذب، الا أن الحكام العرب توجسوا خيفة من زيارته وخامرهم شعور داخلى بالنفرة منه وخاصة بعدما علموا انه يدين بدين غير دينهم الاسلام .. لذلك فقد أوجد التهيب من نواياه المشبوهة توترا بينهم وبينه فى الاتصال وجفوة فى المخاطبة والمفاوضة :

وفى ميناء ماليندى تعرف فاسكو دى جاما على الملاح العمانى الشهير أبن ماجد . وتمكن بواسطة هذا الملاح الماهر الطيب السريرة من تصحيح خط سيرة البحرى من شرق أفريقيا إلى الهند . ثم توسل إلى أبن ماجد أن يبحر به إلى كاليكوت Calicut فلباه إلى طلبه دون أن يعلم شيئا عن نواياه العدوانية الخفية . وسافر ابن ماجد بفاسكو دى جاما وسفنه من ماليندى إلى كاليكوت فى اليوم الرابع والعشرين من شهر ابريل سنة ١٤٩٨م وأوصله إلى كاليكوت فى اليوم السادس عشر من شهر مايو سنة ١٤٩٨م.

وتجاهل البرتغاليون ذكر ابن ماجد فى سجلات رحلتهم هذه ، وكل ما ذكره مؤرخ رحلتهم كاستنهيدا F. Lopez de Castanheda (وقد سبق ذكره فى هذا الكتاب) الذى رافق دى جاما ، قوله : « أن ربانا مسلما قاد دى جاما إلى الهند » .... ولم يعرف المؤرخون أن ابن ماجد كان المرشد لاسطول دى جاما الا من كتاب اسمه (البرق اليمانى فى الفتح العثمانى) ألفه سنة ١٥٧٧م المؤرخ المحقق الشيخ قطب الدين النهروالى [1] حيث ذكر فى كتابه : « وقع فى أول القرن العاشر الهجرى من الحوادث الفوادح النوادر دخول البرتغال اللعين من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند ... دليلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد » «٤٣» .

وعاد فاسكو دى جاما من الهند إلى شرق افريقيا بنفس الخط البحرى الذى رسمه له ابن ماجد معرجا على ميناء مقدشوه ..... وبعد فترة قصيرة ، قضاها فى التجوال حول السواحل الأفريقية ، سافر دى جاما بما بقى من سفنه وبمن كتبت لهم النجاة من غارته إلى البرتغال فوصلها سنة ١٤٩٩م .

ورفع دى جاما تقريرا مفصلا عن اكتشافاته إلى الملك عما نويل الاول .. وبهذا التقرير أضرم دى جاما نار الحقد الاستعمارى فى نفس مايكة ، فشجعه الملك على أن يعيد الكرة ، ولكن على صورة غير تلك الصورة المسالمة التى أنجز خلالها أكتشافاته الاولى .

وفى عام ١٥٠٢م عاد فاسكو دى جاما من البرتغال إلى شرقى أفريقيا معتديا ومحاربا ، فاجبر حاكم مدينة كلوه الحمى أن يدفع له ، من ايرادات ميناله الغنية ، جزية سنوية ، ثم أجبر حاكم جزيرة زنجبار على أن يحذو حذو حاكم ميناء كلوه .

لقد كانت تلك التصرفات العدوانية التى أقدم عليها دى جاما بداية للكوارث التى تعرض لها حكام شرق أفريقيا الحميون وحكام جنوب

١- محمد بن أحمد النهروالى توفى عام ٩٨٨هـ .

الجزيرة العربية وحكام الساحل الغربي الهندى . ولم يكن نصيب رعايا أولئك الحكام الضعاف من الكوارث بأقل من نصيب الحكام أنفسهم .

وفى عام ١٥٠٥م سافر اسطول (٤٤) برتغالى جرى آخر من ميناء لشبونه عماده ألف وخمسمائة مقاتل تحت إمرة القبطان فرانسيسكو دى الميدا Francisco de Almeda وقد عين هذا البحار المغامر ليقود حملة استعمارية أكثر توسعا فى شرق أفريقيا .. وكانت التعليمات التى تحملها دى الميدا تقضى بأن يقيم ستة مراكز تجارية – عسكرية على إمتداد الخط التجارى البحرى بين شرق أفريقيا والهند .

وسقطت أمام أسلحة دى الميدا النارية مناطق المزنبيك وكلوه وممباسا وسادت فيها السيطرة البرتغالية ، وذبح القراصنة البرتغاليون أو سجنوا حكامها العرب وشردوا بهم من خلفهم من بقية حكام الأقاليم الأفريقية الشرقية المتاخمة .

وفى أثر المغامر دى الميدا بعث عمانوئيل الاول باثنين من عتاة قواده الدمويين وهما تريستاو دى كونها Tristao de Cunha والفونسو البوكيرك Alfonso de Albuquerque . فاقلع هذان المغامران باسطولهما من البرتغال سنة ١٥٠٦م وقاما باخضاع شبه جزيرة لامو وجزيرة أوجا وميناء براوه .
ثم أتجها إلى جزيرة سقطرة فاحتلاها سنة ١٥٠٧م بعد قتال مرير مع حاكمها المهرى السلطان عامر بن طوعرى بن عفرير الذى قتل فى هذه المعركة مع مائتين وسبعة عشر من رجاله المهرة الابطال . وكان المهرة قد أحتلوا جزيرة سقطرة سنة٩ / ١٤٨٨م أى قبل أن ينتزعها البرتغاليون منهم بعشرين عاما تقريبا .

لكن المهرة عادوا وقاتلوا البرتغاليين وأخرجوهم من سقطرة ، ودمروا المؤسسات البحرية والكنائس التى أقامها البرتغاليون فى قرية السوق السقطرية . كان ذلك فى أجواء سنة ١٥١١م .

وعندما أحتل البرتغاليون جزيرة سقطرة فانهم انما كانوا يهدفون إلى جعلها قاعدة بحرية يتمكنون بواسطتها من إغلاق مداخل البحر الأحمر فى وجه السفن العربية والهندية والايرانية التى كانت تنقل التجارة الأسيوية والأفريقية إلى مصر .

وما أن أنقضى عام ١٥٠٩م ، أى أقل من أثنتى عشرة سنة على رحلة فاسكو دى جاما الأولى إلى كاليكوت ، حتى أصبحت موانئ شرق أفريقيا إما خاضعة للبرتغاليين ، وتدفع لهم جزية سنوية مرهقة ، أو محتلة من قبلهم .

وبعد أن احرزوا هذا النصر على الحكام العرب راح البرتغاليون يطاردون السفن العربية فى المياه الأفريقية وجعلوها غير قادرة على التناصص (على حد تعبير الربان باسباع) فى الخليجان الأفريقية الصغرى . وكان نصيب السفن المحتية الخنوية من تلك المطاردة العنيفة أكثر من نصيب السفن العمانية والكويتية والايرانية والهندية الهامية . فأثر هذا التطور الخدام فى حالة حضرموت الأقتصادية وبات اليمنيون يشعرون بوطأة المحاصرة البحرية الفادحة التى فرضها عليهم الاستعمار البرتغالى .

الاستعمار البرتغالي على ابواب الهند

فى الوقت الذى كان فيه البرتغاليون يعملون جادين على إخضاع شرق أفريقيا لسيطرتهم وأستغلالهم ، كان فريق من مغامريهم ، بقيادة القبطان الفونسو البوكيرك (تذكره بعض كتب التاريخ العربية بأسم تهكمى هو «عين البقر وأحيانا «أبوه كرش») يقومون باخضاع السواحل الهندية الغربية .

وبانقضاء سنة ١٥١٠م كان البرتغاليون قد أحتلوا أو سيطروا على أقليم كوشين Cochin — وعلى أقليم كاليكوت بعد أن نهبوا وأحرقوا مدينته ، وعلى أقليم جوه Goa التى كانت تحكمها أسرة هندية مسلمة . وقد قتل البرتغاليون جماعة من المسلمين كانت تؤدى صلاة الجمعة فى جامع جوه ... .

وفى سنة ١٥١١م أستطاع البرتغاليون إقامة مراكز تجارية عسكرية لهم فى مالاقا Malacca الواقعة على المنافذ البحرية الجنوبية المؤدية إلى جزيرتى سمطره وجاوه والى الفلبين وجزيرتى هينان وتايوان الصينيتين .. والبرتغاليون هم الذين اسموا جزيرة تايوان الصينية فرموزا Formosa أى الارض البديعة الجمال .

وعلى أثر هذا التوسع الاستعمارى الناجح عين الملك عمانوئيل الاول القبطان البوكيرك حاكما عاما على الممتلكات البرتغالية فى الهند وجنوب شرق آسيا ، ورسم له سياسة واضحة المعالم ذكرها سعيد بن على بامعبيد — الشحرى فى كتابه « زاد الاسفار» بقوله : « كانت سياسة ملك البرتجيز اغلاق الخليج (العربى) فى وجه التجارة الاسلامية الهندية الذاهبة إلى حلب عن طريق البصرة ، واغلاق باب المندب فى وجه التجارة الاسلامية الهندية والأفريقية الذاهبة الى السويس عن طريق قلعة عدن » .

ومهما كانت صيغة تلك السياسة ، فأن الشواهد التاريخية تدل على أن الغرض منها كان السيطرة التامة على التجارة الشرقية والافريقية وتحويلها إلى البرتغال أو إلى أقطار أخرى فى استطاعة البرتغاليين السيطرة عليها — كالحبشة فى البحر الأحمر وجزيرة هورمز فى الخليج — بحيث لا يستطاع إرسال أى جزء من تلك التجارة إلى أوروبا أو إلى أقطار فى الشرق الاوسط إلا بعلم وموافقة السلطات البرتغالية .

ونتيجة لنجاح تلك السياسة الاستعمارية الشاملة والبعيدة المرمى انهالت الثروة الغزيرة الوفيرة على البرتغال فاذكت فى نفس الملك عمانوئيل الأول المزيد من ضراوة التوسع الاستعمارى واغرته بالكيد للمسلمين من عرب وهنود وأفارقه .

وكلما ازدادت ضراوة ذلك العامل الفرنجى كلما كان حرصه أشد على أبتغاء المزيد من خيرات الشرق عن طريق التسلط القهرى والأخضاع العدوانى والنهب الدنئ .

وبات البرتغاليون يطاردون السفن التجارية غير البرتغالية فى أعالى البحار ومن المياه الأقليمية لاقطار حوض المحيط الهندى ... ولربما سمحت السلطات البرتغالية لبعض السفن الأجنبية أن تتجول فى المحيط الهندى مقابل رسم مرور باهظ التكاليف قصد به تثبيط همم التجار وخاصة أولئك الذين لا يجنون من وراء هذه التجارة البحرية غير (التولون) (٤٥) ، على حد تعبير المؤرخ بامعيد ، كما كان حال معظم أرباب السفن الحضرمية .

ولم يقف إحتكار ملك البرتغال للتجارة الشرقية والأفريقية عند حد الحيلولة دون إستفادة العرب والهنود والايرانيين منها ، بل انه أصدر مرسوما منع بموجبه السفن البرتغالية ، ذات الصبغة التجارية البحته التى لم تكن خاضعة لسياسته ولم تدر فى فلك أطماعه ، من ممارسة الأتجار فى الشرق وأفريقيا الشرقية ... فكانت هذه السفن البرتغالية تتعرض للاغراق ، على أيدى قراصنة الملك البرتغالى ، بنفس القسوة التى كانت تغرق بها سفن أهل الحامى الذين كان البرتغاليون يحرقون سفنهم ثم يأخذون تجارتها ويبيعونهم أرقاء فى أسواق المغرب العربى ويرغمون نواخيذها وملاحيها ، تحت تهديد بالقتل ، على العمل فى سفنهم كمرشدين بحريين ، كما سيأتى تفصيل ذلك (٤٦) :

عدن فى مهب العاصفة البرتغالية

لم تكن سلسلة الحصار البرتغالى المضروب حول مداخل الخليج العربى وباب المندب محكمة الحلقات ... فقد كانت بعض السفن اليمنية الخوبية والتهامية والسفن العربية الأخرى والهندية والايرانية والبرتغالية الخاصة تتسلل من خلال الحصار البرتغالى الرسمى إلى داخل الخليج والبحر الأحمر ... وأشتد تهريب البضائع الهندية عن طريق جزيرة هورمز Hurmuz الكائنة فى مدخل الخليج العربى ، كما نشط تهريب السلع الأفريقية عن طريق ميناء عدن أو « قلعة عدن » كما كانت تعرف فى ذلك الحين .

ورغم أن أرض جزيرة هورمز قاحلة ، فأن أهلها كانوا يجلبون ما يحتاجون إليه من زاد وماء وعلف لبهائمهم من البر الفارسي (بر عجم) ١ الذى تفصله عن الجزيرة مسافة من البحر تقدر بأثنى عشر ميلا على وجه التقريب .

ويذهب بعض الأخباريين إلى أن سكان جزيرة هورمز خليط من الفرس والعرب والهنود . وتعتبر الجزيرة مفتاح الخليج ومكانها الأستراتيجية فيه هامة جدا .... وللجزيرة ميناء طبيعي رائع التكوين والتضاريس نسبيا . ولذا فقد كان ذلك الميناء مصونا ، ردحا من الزمن ، من تدخل القراصنة البرتغاليين والعرب الذين يقطنون الجانب الغربي من الخليج . وبفضل هذه الميزة الطبيعية ظلت الجزيرة ، لعدة قرون خلت ، ملاذا أو حصنا للسفن التي تجوب المحيط الهندى للاتجار بين أقطاره الساحلية وموانئ الخليج العربي .

وكان للهرامزة أسطول تجارى قوى التكوين يجوب البحار بين الجزيرة وموانئ شرق أفريقيا وجنوب بلاد العرب وخاصة ميناءي الشحر وعدن . وكانت السفن الهرمزية تعتاد « التشتية » أو « التنويه » في الشحر إلى حين هبوب الرياح المواتية ..

وهنا قرر البرتغاليون إحتلال جزيرة هورمز وقلعة عدن بعد أن أتضح لهم أن جزيرة سقطرة لم تف بالغرض الذى كانوا قد أحتلوها من أجله وهو إقفال البحر الأحمر .

وفى سنة ١٥١٠م كان البرتغاليون قد هاجموا جزيرة هورمز بست سفن حربية وأرغموا حاكمها الفارسى على دفع جزية سنوية لهم قدرها عشرة آلاف دينار أشرفى ، وفوق ذلك تعهد لهم الحاكم بعدم سماحه لسفن التهريب باللجوء إلى جزيرته .. لكن حاكم الجزيرة لم يقو على صد سفن

١- بر عجم - هكذا يكتبه وينطقه الملاحون الحضارم ويقصدون به بر العجم.

التهرب من الأحتياء ببعض خلجان الجزيرة المهجورة . فارتاب البرتغاليون فى نواياه فقرروا ، كما أسلفنا ، أحتلال هورمز وعدن ، وأبتدأوا يعدون العدة لغزو عدن تاركين تحقيق فكرة أحتلال هورمز إلى فرصة قادمة ..

كانت عدن حينذاك خاضعة للدولة الطاهرية اليمنية على عهد الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب الطاهرى . وكان حاكم عدن أحد موالى الطاهريين وإسمه مرجان الظافرى وهو شخص أشتهر باقتداره وحنكته وكفاءته كمدبر لشؤون الحكم فى عدن .

كانت عدن تسمى بعين اليمن وهى فعلا قمينة بهذا الوصف فى تاريخها اللامع الطويل ... وكانت ، فى ذلك الحين أكبر وأشهر ميناء تجارى فى جنوب بلاد العرب ، وهى مدينة تجارية عامرة تحيط بها القلاع الحربية من الغرب والشرق والجنوب . وعلى ساحل خليج صيرة يقع سورها المشهور الممتد من جبل معجلين ١ الى الجبل المقابل ٢ له فى الجهة الأخرى من سلسلة الجبال الشمالية التى تطوق المدينة .. وكانت قلعة صيرة تحمى ميناء عدن الرئيسى وبها حامية برية وبحرية شديدة المراس ... ويفصل المدينة (التى تعرف اليوم بأسم كريتر) عن البر اليمنى الشمالى خليج صغير وضحل جدا (خورمكسر) ، تقع فى أسفل الجبال المطلة عليه قلعة فى مكان يعرف بأسم (باب السلب) .. وللمدينة بوابتان رئيسيتان إحداهما فى مكان باب العقبة (كانت تسمى فى ذلك الحين بعقبة الجمال) للقادمين إلى المدينة من البر اليمنى ، والبوابة الأخرى تقع فى وسط سور ساحل صيرة للقادمين إلى المدينة من البحر .. وها منفذ صغير محصن يصل المدينة بساحل حفات . وسكانها يبلغون فى ذلك الحين ستين ألف نسمة (٤٧) من العرب ، وبها جاليات هندية وتركية وصومالية . وبها

١- يعرف فى بعض كتب التاريخ بجبل المنظر .

٢- يعرف فى بعض كتب التاريخ بالجبل الأخضر .

جالية يهودية كبيرة العدد لها حارة خاصة بها ، كما أن للجالية الحبشية بعدن حارة خاصة بها . وكانت « المعلى » تنافس الشحر فى بناية السفن الشراعية الا أن هذه الصناعة فى عدن كانت فى يد الحضارمة على وجه العموم (٤٨) . وكان بعدن العديد من الفقهاء والأدباء وأهل الصلاح والاصلاح . وفى ذلك الحين لم يكن قد مضى على وفاة الشيخ ابى بكر بن عبدالله العيدروس (٤٩) العدنى الا خمسة أعوام .... نحن الان فى عام ٩١٩ هـ (١٥١٣م) ....

ومنذ سنة ١٥٠٣م قام البرتغاليون بأول زيارة لعدن كتجار وجواسيس وأستمروا يترددون على المدينه يدرسون ويخلون أحوالها السياسية والأقتصادية والعسكرية .. وكانوا يترددون على ديوان حاكمها الأمير مرجان الظافرى ، ويبيعون ويشترون فى أسواقها . وذات يوم أعلن أحد البرتغاليين اسلامه على يد قاضى عدن وكان يتحدث اللغة العربية بطلاقة اذ انه كان برتغاليا من مواليد طنجة المغربية العربية ... وطلب هذا البرتغالى الأنضمام إلى الخدمة العسكرية بعدن وانكشف أمره فيما بعد .. وأنه كان جاسوسا خطيرا ولقى جزاءه الحق على يد الأمير مرجان الظافرى .

وفى الوقت نفسه كان الأسطول المصرى الحربى يتردد على عدن . وكانت تراود المصريين نفس الاطماع التى كانت تراود البرتغاليين فى إحتلال عدن .. فقد كان المصريون يشعرون بالمنافسة البرتغالية على تجارتهم ، فعولوا على الدخول فى معركة حاسمة مع البرتغاليين لأثبات وجودهم فى البحر الأحمر والمحيط الهندى .. ويدرك المصريون أيضاً ألابد لهم من مراكز تجارية ، عسكرية ، فى البحر الأحمر والمحيط الهندى لتعزيز جولاتهم المتكررة مع خصومهم البرتغاليين . والمركز التجارى العسكرى الذى كانوا يرمقونه فى كثير من الاشتهاء كان قلعة عدن ..

وفى سنة ١٥٠٧م قدمت إلى عدن أربع قطع من الأسطول المصرى وقام قائدها بزيارة ودية للامير مرجان الظافرى ، ثم أبحرت هذه القطع إلى المحيط الهندى وكان قصدها ، كما قيل فى حينه ، مطاردة البحرية البرتغالية

وقبل ذلك كان المصريون قد أدركوا خطورة تسرب النفوذ البرتغالى إلى الهند فتدخلوا لنجدة بعض الامارات الهندية المسلمة التى تعرضت للغزو البرتغالى .. وكانت الحرب سجالا بين المصريين و البرتغاليين فى تلك الأمارات ، الا أن المصريين لم يكونوا فى مستوى البرتغاليين من حيث القوة العسكرية والدراية البحرية ... ومن هنا لم يكن تدخل المصريين إلى جانب الأمارات الهندية المسلمة فعالا بما فيه الكفاية لمجابهة واستئصال التوسع البرتغالى .

وفى اليوم السابع والعشرين من يناير عام ١٥١٣م تحركت من ميناء جوه الهندية ست عشرة أو عشرون سفينة برتغالية وهندية ، تحمل (١٥٠٠) جندى برتغالى و (٨٠٠) جندى هندى مالابارى ، تحت قيادة القبطان الفونسو البوكيرك .

وفى اليوم الثامن عشر من شهر فبراير ١٥١٣م هاجمت هذه القوة البرتغالية عدن ، ولكنها صادفت مقاومة عنيدة ، فاضطر القائد البرتغالى إلى الإنسحاب ... وعند خروجه من ميناء عدن حاول إطفاء نار الهزيمة المتأججة فى صدره باحراق أربع سفن تجارية (يمنية وعمانية) كانت راسية فى ميناء صبره .

كانت التعليمات التى يحملها القائد البرتغالى تقول بأن عليه مساعدة النصارى الاحباش فى خصومتهم مع الدناكل المسلمين[1] ، بعد أن يكون قد أستولى على قلعة عدن ... لكن البوكيرك الفاشل لم يتم له الاستيلاء على عدن ، ومع ذلك رأى ، تغطية منه للهزيمة التى لحقت به أمام العدنيين ، أن يبادر إلى مساعدة الأحباش فاتجه إلى ميناء زيلع ، عاصمة الأمير محفوظ الدنكلى لتأديبه على تأييده الدعاة الاسلاميين الذين كان ينشرون الدعوة المحمدية فى ربوع الحبشة ، حيث أن الأحباش النصارى كانوا قد طلبوا

١- اخبار المعارك التي كانت تدور بين الاحباش المسلمين والاحباش النصارى جاء تفصيلها فى كتاب (فتوح الحبشه) جزء (١) لمؤلفه شهاب الدين أحمد بن عبدالقادر الملقب (عرب فقيه). نشر هذا الجزء بنصه العربي المستشرق الفرنسى رينه باسيه

من ملك البرتغال المسيحى نصرتهم فى إيقاف الأمير الدنكلى عند حده ... بيد أن البرتغاليين أرادوا ضرب طائرين بحجر واحد من وراء تدخلهم إلى جانب الأحباش النصارى ... أى التنكيل بالمسلمين من جهة ، ومن جهة أخرى ارضاء الأحباش بغية أعدادهم للدور العميل التجارى لهم فى منطقة البحر الأحمر .

لكن الخسارة التى منى بها البوكيرك فى عدن كانت فادحة ، فلم يستطع ، كما أمل ، مساعدة النصارى الأحباش لأن رجال حملته — برتغاليين وهنودا — كانوا فى حالة معنوية سيئة جدا بعد انهزامهم فى عدن .

فغير البوكيرك خط سيره واتجه من عدن إلى جزيرة كمران حيث قضى بقية فصل الربيع وجانبا من فصل الصيف ثم عاد إلى الهند قبل أن تحول الرياح الموسمية (٥٠) دون وصوله إليها بسهولة .

وعلى أثر المقاومة الباسلة التى نظمها الأمير مرجان الظافرى ، ضد الغزو البرتغالى فى عدن ، سطع نجمه فى المحافل اليمنية والعربية وأصبح يشار إليه بالبنان فى بعد النظر وحسن الأعداد ، والثبات فى المجابهة العسكرية الصامدة ، فوق شهرته كادارى قدير .

لقد سدد إنتصار الأمير مرجان ضربة شديدة إلى هيبة البرتغاليين البحرية والعسكرية فى المنطقة العربية ، اذ كانت هزيمتهم فى عدن أول هزيمة كبرى يمنون بها منذ إنتصاراتهم المتلاحقة على حكام الأقاليم الصغيرة فى شرق أفريقيا والهند .

ولكى يمسح البرتغاليون عار تلك الهزيمة أو ليخففوا ، على الأقل ، من وقعها فى نفوس الهنود والعرب راحوا يعززون مراكزهم التجارية العسكرية فى المحور الشرقى توكيدا لقوتهم ونفوذهم ، وأحتلوا جزيرة هورمز سنة ١٥١٥م كما كان مقررا لهم أن يحتلوها .

إن جزيرة هورمز القاحلة قد جعلها موقعها الجغرافى مركزا تجاريا واسع الثراء .. ولمدة قرنين من الزمان كانت مسقط وقلهات تخضعان

لأمير جزيرة هورمز ، وأن ميناء قلهات العمانية كانت المقر الرسمى للقائم مقام الأمير الهرمزى فى ما كان أهل تلك الجزيرة يسمونه (برعرب) وفى ذلك الحين أمتد نفوذ أمير جزيرة هورمز من قلهات إلى رأس الحد جنوبا ومن راس مصندم إلى البحرين شمالا . أما حين أحتلها البرتغاليون فكان قد تقلص ظل السيطرة الهرمزية الخارجية وأنكمش الهرامزة داخل جزيرتهم .. لكن جزيرتهم مع ذلك ظلت مركزا تجاريا حم النشاط فى الخليج .

ومن هورمز أتجه البرتغاليون بنشاطهم الاستعمارى صوب مداخل بحر الصين فاقاموا سلسلة من المراكز التجارية العسكرية المحصنة على جزيرة سيلان وسواحل خليج البنغال وبوغاز الملايو.

وعلى الرغم من أن السيطرة على التجارة الشرقية ومصادرها قد تمت لهم ، فان البرتغاليين كانوا يشعرون بقضية عدن كشوكة فى جنوبهم تؤرق نومهم وتزعج استقرارهم.

ومضى البرتغاليون يعدون العدة فى صبر وأناة للانتقام من عدن والعدنيين وكانت عيونهم طوال الوقت مفتوحة على ما كان يجرى فى عدن وفى المناطق المجاورة لها وخاصة مدينة الشحر التى كانت مصدر مدد مالى وعسكرى لقلعة عدن بحكم الارتباط المتين القائم بين الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب الطاهرى والسلطان محمد بن عبدالله الكثيرى مولى الشحر..

المصريون حول السواحل اليمنية

أنعدمت تماما أو كادت تجارة البهارات والحرير والعطور الشرقية من أسواق القاهرة وحلب، وأصبحت البندقية ،وهى الزبون التقليدى للسوريين والمصريين، تجد حاجتها من تجارة الشرق من البرتغاليين الذين حلوا محل المصريين والسوريين فى تموين الاسواق الاوروبية بما تحتاجه من التجارة الشرقية والأفريقية.

فلم يسع المصريين ،أمام تلك المنافسة البرتغالية القوية الا أن يضعوا

خطة لاقامة مراكز عسكرية تجارية لهم فى اليمن لتكون نقط انطلاق ضد البرتغاليين فى المحيط الهندى والخليج العربى والبحرين العربى والأحمر.

وتنفيذاً لهذا المخطط المصرى أتجه الأسطول المصرى إلى البحر الأحمر وابتدأ بأحتلال جزيرة كمران. فكان لهذا الاحتلال رد فعل سيئ فى نفوس الحكام الطاهريين الذين كانت تهامة و كمران تشكلان جزءاً من دولتهم.

وحينما وصل الأسطول المصرى إلى الحديدة وهم رجاله بالنزول اليها لاحتلالها قاومهم الطاهريون.

لكن المصريين ظلوا متشبثين بمخططهم سالف الذكر.. ففى شهر رجب سنة ٩٢١ هـ الموافق لشهر أغسطس سنة ١٥١٦م وصلت عدة قطع من الأسطول المصرى إلى عدن بقيادة الامير باشا الأرناؤطى .. وتوالى وصول سفن الأسطول المصرى إلى عدن إلى ان بلغ عدد قطعه سبعاً وعشرين سفينة.

عندها هاجم المصريون عدن...صمدت هذه القلعة الشماء فتراجع المصريون أمام الصمود اليمنى وعدلوا ، مؤقتاً، عن أحتلال عدن واكتفوا بأحتلال مواقع صغيرة على الساحل التهامى بتشجيع من الأمام يحى شرف الدين الذى كان هو الاخر قد أستطاع اقتطاع جزء من المنطقة الطاهرية سنة ١٥٠٦م ودعا الناس لمبايعته أماماً على اليمن!

لقد تمكنت قلعة عدن من الصمود أمام الغزو المصرى بفضل المدد العسكرى الذى تلقاه الامير مرجان الظافرى من تعز من أسياده الطاهريين، وبفضل العون المالى الضخم (٥١)الذى تلقاه من السلطان محمد بن عبدالله الكثيرى من الشحر.

وفى هذه الاثناء كانت الدولة الطاهرية فى حالة من الضعف والتلاشى ميؤوس من شفائها بعد ان ظلت الخلافات بين أفراد الاسرة الطاهرية تنخر فى جسمها وقتاً طويلا.

وكان الأمير مرجان الظافرى، وهو الحاكم الالمعى الحصيف، يدرك تماماً ان النجدة التى اسعفه بها أسياده من تعز ضد الغزو المصرى لن تتكرر

فيما لو تعرضت عدن لغزو مصرى أو برتغالى جديد، وكان يدرك أيضاً ان عليه ان يعمل ترتيباته الخاصة للذود عن قلعته ـ عدن.

كانت تحصينات عدن العسكرية قد تعرضت لتخريب ليس بالهين، كما قتل جنود كثيرون من حاميتها من عدوان الحملة المصرية .. فما كان من الامير مرجان الا ان بادر باجراء الترميمات لتحصينات عدن بما فيها سورها العالى وتلقى فى سبيل انجاز ذلك العمل معونة مالية وعينية سخية من السلطان محمد بن عبدالله الكثيرى.

واستعان الامير مرجان بالشيخ عبد الكريم بن محمد بانافع (٥٢)، وهو أحد ساسة عدن المعروفين بحسن الاحدوثة وكانت له مكانة طيبة عند السلطان محمد بن عبدالله الكثيرى ،على اقناع الامير الكثيرى بأرسال جانب من جيشه للتمركز المؤقت فى عدن حتى تستكمل القلعة اصلاح جانبها العسكري وقبل الشيخ عبد الكريم هذه السفارة واتجه إلى الشحر للاتصال بالسلطان محمد.

وفى عدن ،يذكر الربان باسباغ، ان التجار والاهالى قدموا للامير مرجان التبرعات الوفيرة لترميم تحصينات عدن وتجنيد الجند .. وكان علماء عدن يحثون الاهالى على ذلك.

البرتغاليون يغزون عدن للمرة الثانية

فى هذه الاثناء كان البرتغاليون يرقبون الموقف وتطوره فى عدن وما حولها من المناطق اليمنية باهتمام بالغ.. وكانت أنباء عدن واستعانة أميرها بسلطان الشحر قد نقلت اليهم بواسطة تجارة السفن الملاباربة الهندية التى كان البرتغاليون يعثون بها إلى شواطئ جنوب اليمن لمراقبة الأحوال بها وأطلاعهم عليها أولا بأول.

وكان البرتغاليون قد علموا بأنباء الغزو المصرى الفاشل لعدن، كما وردت اليهم أنباء مفصلة عن الاضرار البالغة التى لحقت بحامية عدن وتحصيناتها الدفاعية. فأراد البرتغاليون أغتنام هذه الفرصة الذهبية للأنقضاض على عدن فى وقت كانت فيه عدن تلعق جراحها وتبكى القتلى من أبنائها.

وعين الملك عمانوئيل الأول القبطان لوبوسورز Lopo Soares خلفاً للقبطان افونسو البوكيرك الذى هزم أمام الامير مرجان الطافرى وتولى القائد البرتغالى الجديد قيادة الاسطول البرتغالى فى المحيط الهندى.

وأبحر القائد لوبوسورز من ميناء جوه إلى عدن فى أسطول تجرى مكون من سبع وعشرين قطعة تحمل ألفاً ومئتين من المقاتلين البرتغاليين وألفاً من المقاتلين الملاباريين الهنود المسلمين.

وكانت تعليمات القائد البرتغالى سورز واضحة وصريحة ، ذكرها الشيخ بامعبيد بقوله :(ان يحتل عدناً أولا ويدمرها ويقتل قادتها وينكل بأهلها وبعد ذلك، واذا ساعدته ظروفه العسكرية والملاحية ، عليه ان يتجه إلى زبيد النصارى الاحباش من تدخل الامير محفوظ الدنكلى) (٥٣).

وفى صباح اليوم الرابع من شهر فبراير ١٥١٦م باغت الاسطول البرتغالى العدنيين ولم تكن تحصيناتهم قد اكتمل بناؤها ولم تكن النجدة العسكرية الحضرمية قد وصلت اليهم.

وهنا يحدثنا الشيخ بامعبيد بقوله:(جمع الامير مرجان أعيان عدن وتشاور معهم وكان أكثرهم يرون ان يسلم الامير مرجان عدن للفرنجى ويحقن الدماء. ووافقهم الامير مرجان الذى كان يشعر بضعف مركزه ولا أحد يدرى كيف تكون خاتمته لانه كان يعلم ان الفرنج الملاعين لايرعون عهداً ولاذمة. وخرج الامير مرجان ومعه شيوخ عدن وتجارها إلى ساحل صبره لأجل ان يسلموا البلد. وارسلوا سفينة صغيرة عليها أمير البحر إلى سفينة الفرنجى يخبره بأن البلد أمرها لله وله ولا يطلبون منه غير تسليم وصون المكالف والارواح. ولم يرد القبطان الفرنجى ولكنه نزل بنفسه إلى البر فى أبهة فائقة ومعه نواخيذ السفن من نصارى ومسلمين (لعله يقصد الملاباريين المسلمين) . فرحب بهم الامير مرجان والدموع فى عيونه من الذل والقهر وكان يتكلم بصوت تخنقه العبرة. لكن القبطان الفرنجى استغرب تسليم عدن بهذه الصورة السهلة وهذا شئ ماكان هو ولاأحد من رفاقه يتوقعه. وقام الامير مرجان بالواجب وهو

انسان داهية فأحس القبطان بالنخوة والعظمة والاطمئنان وقال للامير مرجان نحن لا نريد الحرب معكم وكل مانقصده ان ننقذ عدن من المصريين. ونحن نقبل تسليم القلعة لكم الامان على نسائكم وأرواحكم وأموالكم، ولكن نطلب منك أن تبقى محتفظاً بالقلعة والدفاع عنها إلى ان نعود اليكم بعد أسابيع قليلة لنستلم البلاد منكم بعد ان نطرد المصريين من البحر الأحمر ولاشك وجودنا في عدن يكون منه فوائد كبيرة لكم وللتجار وبقية الرعايا. فأندهش الامير مرجان من كلام الفرنجي وما كان يصدق ماتسمعه أذناه وكأنه يحلم. وفي العصر سافر القبطان الفرنجي بكامل جزوته (٥٤) وأخذ من عدن بعض القوت وأعطاه الامير مرجان عدداً من الكباش وصناديق من العنب والرمان).

ويمضي الشيخ بامعبيد قائلا: (والحقيقة التي فهمناها من روزنامة الناخوذه معراج الدين خانجي وهو واحد من الذين كانوا مع القبطان الابو صوارس (لوبوسورز) انه قال للنواخيذ الهنود الذين كانوا معه عدن سقطت في يدنا سهلة بدون حرب وهي كما شاهدنا مخربة ولا بالقوم ها قائمة بعد اليوم والامير مورزان١ (هكذا يكتب البرتغاليون اسم الامير مرجان) يرغب في وجودنا وهو آدمي طيب ورأيت الانسب تخلي عدن تحت مسؤوليته ونروح نقف على أخوتنا النصارى الحبوش من مكايد الدنا كل)..

ذلك ماأورده الشيخ سعيد بن علي بامعبيد بالحرف الواحد بصفحة ٧٩ من كتابه (زاد الاسفار في أخبار الشحر وعدن وملابار)..

وانها وايم الحق لحقيقة تاريخية تفوق الخيال.

ولله المراد فيما أراد وقدر...لقد كانت الاقدار واقفة إلى جانب العدنيين في محنتهم الفريدة التي قل ان تتمخض الايام عن مثيل لها.

وغادر القبطان لوبوسورز عدنا عصر اليوم الذي جاء فيه اليها متجهاً صوب الحديدة لان الريح ارغمته على مسايرة البر اليمني ولم تستطع سفنه اجتياز البحر إلى الضفة الغربية من خليج عدن.

---

(١) ص ٩٩ من كتاب (تاريخ) لجزا لمؤلفه الانجليزي بليفر Playfair تؤكد التسمية التي أوردها الشيخ بامعبد

وفى الحديدة علم القائد سورز ان قطعاً من الاسطول المصرى كانت قد غادرتها منذ أيام فى أتجاه جدة . فحاول اللحاق بها متخذاً الخط الساحلى اليمني طريقاً له وهو خط بحرى شديد المخاطر لمن لايعرف مجاريه.

وهبت على السفن البرتغالية الزوابع وتمزق أسطول القبطان سورز على الصخور اليمنية شر ممزق، فاعتصم بجزيرة كمران وقد ذهب الجزء الأكبر من اسطوله طعمة للامواج.

واضطر القبطان سورز إلى المكوث بجزيرة كمران بقية فصل الربيع، وفى بداية فصل الصيف غادر الجزيرة إلى دهلك ومنها سار بالخط الساحلى الحبشى حتى وصل ميناء زيلع فقاومه الدناكل الا انه تمكن من احراق بعض اكواخ المدينة وخلف وراءه ثمانية عشر قتيلا برتغالياً وهندياً وقتل فى هذه المعركة عدد قدر بثلاثمائة من الدناكل والصومال..

ونظراً للمرض الذى تفشى بين بحارته عاد القبطان سورز مرة أخرى إلى كمران وهو يعرج تحت ثقل خسائره الفادحة . ومكث بها حتى نهاية سنة ١٥١٦م..

وخلال أقامته فى كمران أرسل سفينتين من سفنه إلى ميناء اللحية لشراء بعض المواد الغذائية، غير ان سكان اللحية أسروا سبعة من بحارتها وتمكن بقية البحارة ، الذين نزلوا إلى البر ، من الفرار إلى السفينتين مع ماتمكنوا من أخذه من الزاد من ميناء اللحية.

وارسل حاكم اللحية بالاسرى البرتغاليين السبعة إلى جدة ، ومنها أرسلوا إلى اسطنبول. وقد تمكن احدهم من الافلات من الاسر ووصل البرتغال ليحكي على مليكها عمانوئيل الاول ماحل بقبطانه الاخرق الاحمق.

أما السفينتان اللتان ارسلهاالقبطان سورز إلى اللحية فقد عادتا إلى جزيرة كمران بشئ من المواد الغذائية.

وقد بلغت إلى أسماع الامير مرجان الظافرى أنباء القائد سورز وسوء الطالع الذى رافقه حينما ذهب فى سفرته العدوانية العابسة ، كما ان أنباء احراق

زيلع كان لها رد فعل عميق فى نفوس العدنيين تعاطفاً مع اخوتهم الدناكل والصومال ، لاسيما وأن ماقام به القبطان سورز ضد الدناكل لم يكن الا تأديباً للامير محفوظ الدنكلى جزاء تشجيعه ومؤازرته الدعاة المسلمين المنبثين فى أقاليم مختلفة من الحبشة لنشر الدعوة الاسلامية، وكان الاحباش النصارى يقاومون أولئك الدعاة ويستعدون البرتغاليين على الامراء المسلمين الدناكل والصومال — الذين كانوا يؤازرونهم..

وفى شهر يناير ١٥١٧م قدم القبطان لوبوسورز بما تبقى من اسطوله الكسيح إلى عدن ليتسلمها من الامير مرجان .فلم يسع الامير مرجان أزاء هذه الجرأة البرتغالية الشنيعة ، الا (أن يصافح رسل القبطان بطرف سيفه المسلول) (٥٥)، ورفض بكل اباء تسليم عدن، فأسقط فى يد القائد البرتغالى الارعن وشعر، ولربما لاول مرة فى تاريخ حياته القيادية ،أنه لايملك حولا ولا طولا أمام الموقف الجديد الذى نشأ فى عدن.

فغادر القبطان سورز عدن مغاضبا (يعض) أصابع الندم.

ان الشئ الوحيد الذى انجزه لوبوسورز من مهمته العسكرية العدوانية كان احراقه عدداً من أكواخ ميناء زيلع وقتله بعض المسلمين المجاهدين.

(أما عدن فقد سلمها الله من كيده.. ان ينصر كم الله فلا غالب لكم.. صدق الله العظيم). هكذا كان ماأورده بامعبيد فى كتابه سالف الذكر.

فما هو الذى أمال ميزان القوة إلى جانب الامير مرجان وجعله يتخذ ذلك الموقف الرائع الصلب فى وجه أطماع القبطان سورز؟

رد فعل الهزيمة البرتغالية

كانت أهم الأسباب التى مكنت الامير مرجان الظافرى من الامتناع عن تسليم قلعة عدن للقائد البرتغالى لوبوسورز :—

١— تجنيد الامير مرجان عدة مئات من رجال القبائل من المناطق المحيطة بعدن للدفاع عن عدن.

٢ـ أكمال ترميم تحصينات عدن الدفاعية وخاصة حصون جبل صيره وحصون جبل حقات.

٣ـ وصول النجدة الحضرمية العسكرية إلى عدن، وكانت مكونة من الف مقاتل من الحموم والمهرة.

٤ـ وأهم من كل ذلك ،أن الامير مرجان أستطاع باقتداره الاداري استيعاب المدد المحلي والعون الخارجي وتنظيمها أبدع تنظيم والاستفادة منها.

ولقد كان مقرراً أن تصل النجدة الحضرمية إلى عدن في شهر ديسمبر ١٥١٥م، أي قبل وصول القائد البرتغالي إلى عدن في شهر فبراير سنة ١٥١٦م.

بيد أن موسم (٥٦) السفن الحضرمية القادم من البصرة تأخر في الخليج ولم يصل إلى الشحر الا في نهاية شهر يناير ١٥١٦م.. وبعد وصول الموسم ومرور بعض الوقت في تفريغ حمولتها واجراء ترميمات وتجديدات ضرورية لها ولاطمانها، كان وكلاء السفن بالشحر قد قرروا ورتبوا سفرها إلى الهند وإلى شرق أفريقيا لنقل المهاجرين الحضارم.. والواقع أن أولئك الوكلاء لم يكونوا قد تلقوا اشعاراً من السلطان محمد بن عبدالله الكثيري عن عزمه استيجار سفنهم للابحار إلى عدن لانه كان متكتماً على هذه المهمة.

ورغم نجاح سفارة الشيخ بانافع لدى سلطان الشحر الا ان تصادم الاغراض التي مرت بنا أجلت سفر النجدة إلى عدن.

لقد حاول السلطان محمد أن يتجاهل أمر المهاجرين في بداية الأمر ولكنه في النهاية نزل عند موقفهم لانهم احدثوا شغباً مزعجاً في مدينة الشحر وأصروا على نقلهم إلى مهاجرهم المختلفة وتأزم الموقف وكاد ينفجر إلى مالاتحمد عقباه.

لكن أحد الاشراف من آل مكنون الذين يسكنون قرية الحامي توسط لدى ملاك ونواخيذ السفن الحامية لنقل التجهيز (٥٧) إلى عدن ،فبادر أهل الحامي بناية الطلب وقدموا أربع عشرة سفينة لنقل الجند . وتبعهم أهل الشحر وقدموا سبع سفن وقدم المهرة ستا من سفنهم وقدم آل صور العمانيين أربع سفن . وفي الثاني عشر من شهر أبريل ١٥١٦م توجهت النجدة إلى عدن

فوصلتها فى الثامن عشر من الشهر نفسه... وفى هذا الشهر كان القبطان سوزر كامر بناء بين جزيرة دهلك والساحل الحبشى فى طريقه إلى زيلع..

كان القبطان لوبوسوزر قد أدخل ،فور توليه مسؤولية قيادة البحرية البرتغالية فى المحيط الهندى ، تعديلا هاماً على سياسة سلفه الفونسو البوكيرك. وكانت سياسة البوكيرك تقضى بمنع السفن البرتغالية غير الرسمية من التحرش بأهالى المناطق التى يزورونها كما منعها من الاتجار مع الموانئ العربية والهندية والأفريقية الا بترخيص صريح من قيادته البحرية.

وبعد هزيمته المنكرة أمام الامير مرجان الطافرى بعدن أطلق القبطان لوبوسوزر العنان للسفن البرتغالية الخاصة وسمح لها بالذهاب حيث شاءت والاتجار مع من تشاء من الشرقيين والافريقيين شريطة ان تساعد تلك السفن فى مطاردة سفن التهريب الشرقية.

وكانت النتيجة لهذه السياسة الجديدة ان انقلب التجار البرتغاليون المسالمون، تحت ستار مكافحة التهريب، إلى قراصنة خطرين يغيرون على الموانئ العربية لنهبها واحراقها ونهب وأحراق واغراق السفن الشرقية فى أعالى البحار وفى الموانئ ..فكانوا يأسرون البحارة ويبيعونهم بيع الرقيق، وكان ميناء مقديشو سوقاً لهم لبيع الرقيق الحبشى والهندى للصومال والاحباش، وكذلك كانت أسواق المغرب العربى . وكان القراصنةالبرتغاليون يداهمون القرى الساحلية الحبشية فينهبون الحرمات ويحرقون وينهبون بساعدهم فى القيام بأعمالهم الشريرة السلاح الحديد الفتاك الذى يملكونه وهو البندقية النارية (٥٨) ومن الموانئ التى تعرضت للغارات البرتغالية الحديدة والخا وبروم والمكلا والشحر والحامى.

لقد أراد لوبوسوزر أن يجعل من هذه السياسة المروعة بديلا مؤقتاً لاحتلال عدن.. ومع ذلك كانت سياسة سوزر تمنع البرتغاليين من التوغل فى البر العربى لكيلا يلاقوا المصاعفات التى لاتطاق لقيادته البحرية. ولذلك ركز القراصنة البرتغاليون على المدن والقرى الساحلية العربية فكان أهل الخاء- مثلا-

يغرون بنسائهم وأطفالهم وحليهم إلى موزع كما كان يفر أهل بروم إلى الحجله وأهل الشحر إلى ثباله. ومن هنا سلمت قرية الحامى (البلاد الفوقية) من الغزو البرتغالى ولم تتعرض الا منطقة الظهار الساحلية (الحامى الحالية)، فكان الغزاة البرتغاليون يحرقون مزارعها ويلوثون مصادر ماء الشرب بها ويعقرون مواشيها.

ظهور السلطان بدر ابى طويرق على مسرح الأحداث

فى سنة ٩٢٧هـ (١٥٢٠م) جرت أحداث هامة فى كل من البرتغال وعدن والشحر.

ففى هذه السنة مات الملك مانويل الاول ومات معه حلمه بالاستيلاء على اسبانيا . وخلفه على عرش البرتغال ابنه يوحنا الثالث وكان فى حمم الهواجس الدينية ضعيف الارادة وواقعاً تحت تأثير زوجته الملكة كاترين التى كانت تملك عدداً من سفن القرصنة البرتغالية.

وفى هذه السنة توفى الأمير مرجان الظافرى ودفن بمقبرة الشيخ جوهر بعدن، وخلفه، كحاكم لعدن، الامير عبد الملك بن محمد بن عبد الملك ابن داؤد الظافرى.

وفى هذه السنة تنازل السلطان محمد بن عبدالله الكثيرى عن حكم الشحر لاخيه الاصغر بدر بن عبدالله الكثيرى الملقّى «بوطويرق».

ولد السلطان بدر بوطويرق سنة ٩٠٢هـ وأظهر فى سن مبكرة تطلعاً إلى الحكم وشغفاً بالرئاسة ومظاهرها، وأصبح ينافس أخاه السلطان محمد فى شؤون الدولة وعلاقاتها العامة بشكل لم يكن محل رضا السلطان محمد،

ولكى لاتتفاقم الأمور بينه وبين أخيه بدر قرر السلطان محمد التنازل للسلطان بدر عن حكم حضرموت الداخل والساحل واحتفظ لنفسه بحكم أقليم ظفار الذى كان وقتها جزءاً من الدولة الكثيرية.

وفي سنة ٩٢٧هـ (١٥٢٠م) كتب السلطان محمد بن عبدالله الكثيري رسالة إلى خطيب جامع الشحر الشيخ أحمد بن محمد سبتي بان يسقط اسمه من خطبة الجمعة وان يخطب لأخيه بدر.

ويقول المؤرخ الاستاذ صلاح البكري عن السلطان بدر : (كان شديداً في حكمه قاسياً في أمره ولكن هذه الشدة وهذه القسوة في صالح الامة ولمنفعتها) (٥٩).

أما ان بدر كان شديداً وقاسياً فهذا أمر مفروغ منه . وأما ان شدته وقسوته كانتا لصالح الامة ولمنفعتها فهذه مسألة تاريخية ستكون موضع جدل إلى ماشاء الله.

وأتخذ السلطان بدر مدينة سيئون مركزاً لحكمه.

وفي مدينة الشحر كان أول عمل مثير قام به السلطان بدر انه عزل حاكمها الامير مطران بن منصور (٦٠) وصادر ممتلكاته . وكان الامير مطران الساعد الايمن للسلطان محمد بن عبدالله الكثيري في إدارة شؤون ساحل حضرموت.

وفي مدينة عيل باوزير التجى السلطان بدر القيض على حاكمها علي أحمد بن النقيب[1] واتهمه بالتواطؤ مع أخيه السلطان محمد ضده وزج به في السجن. ولم يكتف بذلك بل أنه شمل عينيه وعزله عن الخدمة.

ولعل السلطان بدراً أراد بهذه التصرفات الطائشة العنيفة ، افهام المواطنين الذين يكنون الولاء للسلطان محمد بأنه هو السيد المطاع ذو القوة والجبروت دون أخيه محمد.

وقد رافقت ضجة البطش هذه تصرفات السلطان بدر مدة توليه الحكم وأدارت الدائرة عليه ..لكنه بطيشه وانفعاله الذي لم يكن يعرف الضوابط والحدود أوجد لنفسه الخصومات بين الحضارم الذين استبشعوا

١- كان النقيب قائماً مقام محمد بن عبدالله الكثيري في حكم منطقة العيل ويشير اليه المؤرخ بافقيه الشحري بـ(خادم العيل) وذلك ما كان يوصف به بعض ولاة المناطق الحضرمية.

قسوته التي لم يكن لها ما يبررها والتي لم تكن صادرة عن تعقل او روية.

ان الامير مطران بن منصور الذي عزله السلطان بدر عن الحكم وصادر ممتلكاته ، كان من أخلص الناس للسلطنة الكثيرية ، وكان السلطان عبدالله بن جعفر الكثيري – والد السلطانين محمد وبدر – قد جعله وصياً على هذين الولدين إبان صغرهما ، وذلك عندما حضرته الوفاة سنة ٩١٠هـ. وقد مات السلطان عبدالله بالشحر ودفن بالجهة الشرقية من قبة الشيخ سعد تاج العارفين (٦١). ولعب الامير مطران دوراً هاماً في تنصيب السلطان محمد خلفاً لأبيه الراحل عبدالله، كما وانه سعى بالحكمة في تهادى الاصطدام بين السلطان محمد وأخيه بدر ، وكان من المشجعين للسلطان محمد على التنازل عن حكم الشحر لاخيه بدر (٦٢).

وفي سنة ٩١٣هـ، وكان السلطان محمد حينها شاباً غير متمرس بشؤون الحكم ومتغيباً عن الشحر في سيئون، حاولت بعض قبائل آل كثير والشحاية وآل دغار وسبيان بقيادة المقدم بشر بن عبدالله الكثيري والمقدم أجود الشحيلي اغراء الامير مطران على الاستيلاء على السلطة في مدينة الشحر ودحر السلطان محمد من حكم ساحل حضرموت. فأبى الامير مطران أن يدنس نفسه بهذه المؤامرة وخرج لقتالهم وتم له القبض على قادة التآمر وكان فيهم المقدم بشر بن عبدالله الكثيري والمقدم أجود الشحيلي ولم يطلق سراح المتآمرين الا بعد ان صالحوا السلطان محمد على السمع والطاعة . وفي هذه الحادثة يقول الشاعر الشعبي الشيخ سليمان بن عوض باجردانه الشبامي من قصيدة (٦٣) مدح بها الامير مطران على النصر الذي حققه ضد المتآمرين:

بشر وأجـود وبن دغار يبغـون دخـله
في سعـاد الزينـه خير لاراض جمـله
يحبـون المدن ميسـورة الكسر سهـله
عـاد فيها الذي يحمي اذا غـابوا أهـله
مير بن مير شامخ قاف (٤٦) لاقاف مثله
متصف بالسيـاسة والفضائـل وهي له

حين قدمه بن جعفـر ورشـده نسـله
يعلم أنـه ربط لاعلب مهلال (٦٥) أصله

صدهم بالسـوف البـاترة المسـهلة
خير لمـا رضوا بالصلح أقوام جهـلـه

بشر مقصـده بايسعر فى (السوق) بطلة
يوم غـرته نفس السوء مذمـوم فعله

ما الخيانات من كـار ابن منصور قل له
مشخص (٦٦) أحمر نقى والباب محكوم قفله

وعين السلطان بدر الامير عطيف بن على بن دحدح (٦٧) حاكما على الشحر بدلاً عن الامير مطران بن منصور.

وقد استاء أهالى الشحر من المعاملة السيئة التى تعرض لها الامير مطران على يد أبى طويرق، وعدوا تصرفات السلطان ضرباً من التهور وعدم الثقة بالنفس كما قال الربان باسباع.

بيد ان السلطان بدرا أدرك خطأه بعد ما يقرب من عشرين شهراً فرد للامير مطران أعتباره، وأعاد اليه ممتلكاته وعينه من جديد فى منصبه كحاكم لمدينة الشحر فى أواخر سنة ٩٢٨هـ، ونقل الامير عطيف بن دحدح من الشحر إلى المشقاص حيث عينه حاكما لواء الشرق ومقره ريده آل عبد الودود.

وعلينا ان نتذكر هذين الرجلين— مطران وعطيفا— اذ كان لكل منها دور هام فى معركة الشحر التى نحن الان بصدد رواية الاحداث التى أدت اليها.

وإلى جانب ماعرف عن أبى طويرق من نزق وقسوة ،يحدثنا التاريخ عن جانب مشرق فى حياته متمثل فى منجزات ثقافية وادارية قام بها السلطان بدر خلال حكمه.

ففى سنة ٩٣٧هـ نظم التقد المتداول فى أسواق حضرموت وضرب سكة جديدة لتسهيل التعامل المالى منها الريال وفئاته الصغيرة.

وفى سنة ٩٤٦هـ حسن علاقاته بالأتراك وقبل منهم ثلة من جنودهم المسلحين بالبنادق للعمل فى وحداته العسكرية بقيادة ضابط تركى يدعى رجب، أطلق عليه أهل الشحر كنيه «بوشواريب» كما أطلقوا على الجنود الأتراك وصف «شاربين المسكرة».

وفى سنة ٩٥٩هـ شجع التعليم ورجاله فى مدينة الشحر وأنشأ بها «المدرسة السلطانية» (٦٨).

وكان السلطان بدر كثير الغزوات فى أرجاء حضرموت ، وكأنه كان يستمرئ اخضاع القبائل المحلية وأذلالهم، وقد انتفضوا من حوله ،الأمر الذى ضطره ان يجند فى جيشه اعداداً من يافع والزيود والعز.

ولم يفد من غزواته شيئاً يذكر لحفظ الأمن أو لحفظ الكيان السياسى لدولته. فكان يغزو المنطقة ويستولى عليها ثم لا يلبث أن يسحب جنوده منها، وعلى أى حال لم يكن المنتصر فى كل الفتن التى كان يثيرها ، وان هزيمته أمام آل العمودى (٦٩) بوادى دوعن مشهورة إلى يومنا هذا.

لذلك وصفه معاصروه بأنه «يضم ويضيع» كالاناء الخروق. وقد هاجمه شاعر شعبى ذات مرة بقوله:-

قدها عليه هنه (٧٠) يضم ويضيع
ويوقظ الفتنة وهى نعساته
حلان كم من دار صبحهم طير
بشوره العالر غدت حزاته
مافادت الحملات قل له هون
الخد فلت والعرب لفاته
ضيعت رزق الخلق فى كثر الفه
الوف ذى ضيعتها حناته

ذلك هو الشاعر عبدالله بن عبود مدحج الشحرى (٧١).. أجل لقد كان السلطان بدر متلافا لخزينة العامة اشباعاً لنزواته العسكرية.

ان النظائر التاريخية تبرز فى أعمال الشخصيات التاريخية على درجات متفاوتة فى الشبه الشكلى ولكنها مماثلة فى جوهرها من حيث انها تقود إلى الحاق الالام الجسيمة بالبشرية.

فهناك ـ مثلا ـ وجه شبه بين السلطان بدر والاسكندر المقدونى ـ والقياس مع الفارق من حيث الشكل ـ فى ان الاثنين توليا الملك وهما فى بداية العقد الثالث من العمر، وكانا مريضين بحب السيطرة والغزو. وهذه السن المبكرة تعطى الحاكم المطلق لونا فرجياً للتسلط ومذاقاً سكرياً للبطش فوق كونها تعطى مشاكل الامة الشائكة ملمساً مخملياً ناعماً. ولقد كان السلطان بدر حاكما مطلقاً .وهناك وجه شبه ثالث بين بدر والاسكندر وهو ان الاثنين كانا محاطين بنصحاء ممتازين فى رجاحة العقل والاستقامة، لكن رجاحة العقل لاتنفع مع خفة الجنون ـ جنون العظمة . فقد كان اورسطو (٧٢)، أشهر فلاسفة اليونان قاطبة ، استاذا وناصحاً للاسكندر ،بيد ان ذلك العقل النير لم يستطع كبح جماح جنون الاسكندر فى الغزوات المدمرة له ولاعدائه. وكذلك كان السلطان بدر محاطاً بالعديد من فقهاء حضرموت وذوى المشورة الثاقبة الناصحة فيها وعلى رأسهم ، وفى وقت متأخر ، الشيخ عبدالله بن عمر بامخرمة (٧٣) فقيه زمانه والملقب عن جدارة «الشافعى الصغير» .. لكن اولئك الاماجد لم يستطيعوا أن يحدوا من نزوات أبى طويرق أو ان يوجهوه ،فى سياسته العامة ، الوجهة الصحيحية التى تجنبه الاخطاء فى حق البلاد والرعايا لقد كان السلطان بدر واقعاً تحت مؤثرات هواجس لدنية هى إلى مرض «السادية» أقرب من روح التدمير الذاتى.. ومع كل ذلك فان شخصية أبى طويرق سوف تظل جدلية اليوم كما كانت قبل عدة قرون مضت. لقد كان المؤرخ الطيب بن عبدالله بامخرمة (توفى سنة ٩٤٧هـ بعدن) صاحب كتاب «قلادة النحر» الشهير غير محبذ لسياسة أبى طويرق ، فى حين ان المؤرخ

محمد بن عمر بافقيه (٧٤) (من رجال القرن الحادى عشر الهجرى)المعروف «بالشحرى» يرى عكس مايراه الطيب باعزمة.

وبديهى ان يختلف المؤرخون أو الدارسون حول فهم أو تقييم سياسة معينة أو موقف خاص لشخصية من شخصيات التاريخ .لكن مثل ذلك التأرجح بين الجرح والتعديل عند السلف لاينبغى له ان يعفينا من ابداء رأينا فى التصرفات العامة الصادرة عن شخصيات التاريخاذا توفرت لنا بصورة معقولة ،أسباب ابداء الرأى.

واتباعاً منه للقاعدة السائدة فى علاقات السلاطين آل كثير مع الدولة الظاهرية، كان السلطان بدر أبو طوبرق يدين بالولاء لحاكم عدن الظاهرى، كما قد فعل اسلافه من قبله، ويدفع اليه كل عام جانباً (٧٥) من ايرادات الخزينة العامة بالشحر.

الغارة البرتغالية الانتقامية على مدينة الشحر

بعد ان عاد القبطان لوبوسورز إلى الهند من عدن بجر أذيال الفشل، كبر الامر على البرتغاليين واعتبروا هزيمتهم الثانية أمام الامير مرجان الظافرى طعنة على جرح لم يكن قد اندمل بعد.

واعادوا تقييم الموقف وتحليله من جديد. فاتضح للبرتغاليين أن قلعه عدن التى أذلت كبرياءهم لم تكن تقاوم بمفردهـا، رغم تحلى ملوكها الظاهريين عنها ، ولكنها كانت لها روافد تمدها بالقوة والتأييد، وأن مدينة الشحر كانت فى مقدمة تلك الروافد.

وعلى أثر تقييمه للموقف ،عين الملك عمانوئيل الاول دى وارتيه D. Duarte حاكما جديداً للهند البرتغالية ، بدلا عن فرانسكو دى الميدا حاكمها السابق.

وتنسيقاً منه لخيوط سياسته الجديدة ، عزل الملك عمانوئيل الاول القبطان لوبوسورز عن قيادة البحرية البرتغالية فى المحيط الهندى ، وعين بدلا

عنه لويز دى منزيس Dom Luis de Menezes شقيق حاكم الهند البرتغالية الجديد.

وبعد ان تولى عرش البرتغال الملك يوحنا الثالث ، تصرف الحكام البرتغاليون فيما وراء البحار وفق اهوائهم ومصالحهم الشخصيـــة بتأييد من الملكة كاترين. فكثرت أضرار الولاة الجهنمية التى كانوا يلحقونها بالعرب والهنود والافريقيين .لقد كانوا يتصرفون وكأنهم ليسوا مسؤولين لحكومة بلادهم . وفقدت حكومة البرتغال مركزيتها وسيطرتها على تصرفات ولاتها فيما وراء البحار.

وتفشت فى القيادات البحرية البرتغالية الفوضى وعدم الانضباط فى مختلف جهات البحار الشرقية والشرقية الجنوبية ، حتى ان بعض المؤرخين اعتبروا عهد الملك يوحنا الثالث بداية انحدار وزوال الامجاد البرتغالية. والواقع ان البرتغاليين ذهبت ريحهم، كدولة فاتحة وقوة مسيطرة فى المحيط الهندى والشرق الاقصى ، قبل نهاية القرن السادس عشر الميلادى.

وبالرغم من السلبيات التى اتسم بها وضعهم السياسى والعسكرى،لم ينبذ البرتغاليون فكرة غزو عدن...وقرروا غزوها للمرة الثالثة.

لقد كان وجود البرتغاليين، كدولة فعالة، يمر بمرحلة اختبار دقيق وصارم فى المحيط الهندى.

وكانت استراتيجيتهم لغزو عدن تقتضى حسب نظرهم ،عزل تلك القلعة اليمنية عزلا تاماً ، ولو انه غير مباشر ، عن روافدها، أهم تلك الروافد كانت ،فى حسابهم ،مدينة الشحر.

ولكي يتسنى لهم عزل عدن عن الشحر ،وضع البرتغاليون مخططاً يرمى إلى القيام بسلسلة من الغارات الانتقامية تحطم ، أولا وقبل كل شئ، امكانات الشحر المالية والبشرية بان تجعل هذا الميناء اليمنى وماجاوره من القرى الحضرمية الساحلية وفى مقدمتها ميناء خلف (المكلا) الذى يمد الشحر بالسلع الصومالية ،وميناء بروم ملاذ السفن الحضرمية عند اشتداد الرياح

الموسمية ، وقرية الحامى التى كانت تمد الاسطول التجارى الحضرمى بأحسن ملاحيه وبحارته — بان تجعل هذه النقاط الاربع فى حالة شلل كامل.

وتنفيذاً لهذا المخطط العدوانى الاستعمارى الرهيب ، على عدن وبروم والمكلا والشحر والحامى، تقرر القيام أولا بغارة انتقامية على مدينة الشحر تحت أى سبب من الأسباب حقيقياً كان أم خيالياً.

وتحرك من جوه أسطول برتغالى مكون من تسع قطع بحرية تحمل سبع مائة من المقاتلين البرتغاليين والملاباريين تحت قيادة لوبز دى منزيس نفسه.

وبالقرب من جزيرة عبد الكورى فقد هذا الاسطول سفينتين من سفنه التسع وتمكن من انتشال الجزء الاكبر من بحارتها وجنودها من أحضان الامواج.

ومرت السفن البرتغالية السبع بظهار الحامى الساحلى فاحرقت خمس سفن يمنية كانت راسية به ، والحقت أضراراً بالغة بمحاصيله الزراعية.

وفى صباح يوم الخميس التاسع من شهر ربيع الثانى سنة ٩٢٩هـ (٢٧ فبراير ١٥٢٣م) القى الاسطول البرتغالى المعتدى مراسيه فى ميناء الشحر.

والان لم تمض على السلطان بدر الا فترة قصيرة منذ أن تولى حكم الشحر.

وفى اليوم الذى قدمت فيه الحملة البرتغالية إلى الشحر لم يكن السلطان بدر موجوداً بها ولكنه كان فى زيارة تفقدية لوادى حضرموت وعلى طريقته فى الظهور أمام قبائل الوادى بمظهر القوة والمنعة، استصحب معه معظم رجال حامية الشحر ومن بينهم رجب التركي وجنوده البنادقية.

ولم يترك السلطان بدر فى الشحر الا حامية رمزية مكونة من يافع (٧٦) والمماليك الافريقيين وجلهم من الشيوخ العجزة الذين يتولون عادة حراسة المؤسسات الحكومية.

وكان الحاكم على الشحر الامير مطران بن منصور ولم تكن قد مرت على اعادة تعيينه فى منصبه القديم الا أشهر قليلة . وكان يساعده فى تصريف

شؤون البلدة ، وهي عادة ابتدعها الامير مطران ، بعض اعيان البلدة وفقهائها وتجارها .

وكانت الحالة في مدينة الشحر هادئة على وجه العموم . وكانت بميناء الشحر بعض السفن الهندية واليمنية التهامية وخمس سفن برتغالية خاصة قدمت من شرق افريقيا قبل ايام من وصول الحملة البرتغالية .

وكانت الحياة العادية في مدينة الشحر تسير سيراً مألوفاً ، وحركة النشاط التجاري في أوجها . وفي ذلك الحين كان بالمدينة سبعون رأس خيل قدمت من ظفار للترحيل الى الهند وجده . وكان جانب من هذه الحيوانات معروضاً للبيع في اصطبلات سوق الشحر .

وكان سوق الشحر عامراً بالمواد الغذائية ، وكان يوجد الى جانب الحلويات والمشهيات ، مقدار كبير من الفاكهه الاسبانية المجففة جلبتها السفن البرتغالية اضافة الى انواع اخرى من الفواكه الهندية والافريقية والمحلية .

وفي الوقت الذي وصلت فيه الحملة البرتغالية كان امير البحر في مقر عمله بعمارة الميناء ، ولم يكن قد دب النشاط في ارجاء الميناء لان عمال الشحن والتفريغ كانوا في هرج حول توزيع العمال على الاعمال التي كانت تنتظرهم في الميناء .

وفي عرض البحر شوهدت سفن صيد السمك الصغيرة التابعة لاهل الشحر متجهة الى مناطق الاصطياد ، والبعض منها ما زال يغالب الامواج الساحلية ليفلت منها الى عرض البحر . ولم تبق جانحه على الساحل الا سفن صيد السمك التابعة لاهل حي «الخرف» اذ ان اربابها كانوا يضطربون هنا وهناك وهم بسبيل دفعها الى البحر .

وفي منطقة السوق كانت الحوانيت مقفلة الا من بعض القهوات والمطاعم التي تزود الاشخاص المبكرين الى اعمالهم بما يحتاجون من طعام . .

وفي ساحة السوق الكبيرة كانت جماعات من الاهالي متجمعة في شلل

تستعرض الاخبار وتستجر الفال والقبل قبل ان تعود الى منازلها لتناول طعام الافطار ، كما هي عادة بعض أهالي الشحر الى يومنا هذا . .

وفجأة شاهد اولئك المتحلقون في ساحة السوق امير البحر بصحبة ثلاثة من البحارة البرتغاليين يخترقون الساحة مسرعين في سيرهم ومتجهين الى «الديوان (٧٧) الذي كان الأمير مطران قد قدم اليه في جمع من أعوانه قبل برهة . ولم يهتم الناس ، الذين شاهدوا البرتغاليين الثلاثة ، بقدومهم لانهم قد تعودوا على مشاهدة اولئك الغرباء وما يجرون من اتصالات مبكرة ، احياناً ، مع حاكم البلدة . والواقع ان بعض الناس قد اعطوا لقدوم البرتغاليين الثلاثة تفسيراً بعيداً كل البعد عن واقع الحال . وبعد فترة قصيرة شوهد امير البحر والبرتغاليون الثلاثة يغادرون «الديوان» ويعودون ادراجهم بالطريق المؤدية الى الميناء .

ثم ظهرت على «الديوان» حركة غير عادية . .

فما هو الذي حدث ؟.

بداية هبوب العاصفة

بعد وصول الاسطول البرتغالي الى ميناء الشحر بساعة أو ساعتين نزل منه الى الساحل ثلاثة من البحارة البرتغاليين يحملون رسالة من القائد لويز دي منزيس الى السلطان بدر أبي طويرق . فطلب أمير البحر منهم تسليم الرسالة اليه ليبلغها بدوره الى المسؤولين كما جرت العادة بذلك . . ولكن البحارة رفضوا وأصروا على مقابلة السلطان او القائم مقامه لتسليمه الرسالة بأنفسهم . فما كان من أمير البحر الا ان أخذهم الى الامير مطران فسلموه رسالة قائدهم ، وكان مضمون الرسالة ان تاجراً برتغالياً اسمه الفونسو دي فيجا Alfonso de Veiga مات في الشحر منذ خمسة اشهر وان السلطان بدرا استولى على أمواله ، وان قائد الاسطول يطلب تسليم تلك الاموال اليه بدون تأخير (٧٨) .

فرد الامير مطران على قائد الاسطول برسالة مضمونها انه لا يعلم شيئاً عما جاء في رسالته ، ولكنه طمأنه بأن السلطان بدرا في زيارة قصيرة لوادي

حضرموت وان عودته الى الشحر متوقعة فى غضون أيام قلائل وأن كل مجهود سوف يبذل لاعطاء الموضوع ماهو جدير به من اهتمام وعناية .

وفى وقت مبكر من اليوم كان الامير مطران قد تلقى بلاغاً من الخامى عما أحدثه البرتغاليون من أضرار بالسفن الراسية بها وبالمزارع الساحلية هناك . ولقد ادرك الامير مطران ما يرمى اليه القائد البرتغالى ولذلك حاول تلافى ما قد يكنه من شر للشحر وأهلها ، وراح يلاطف البحارة البرتغاليين وأرسل معهم للقائد هدية من الحلوى وجوز الهند والفواكه الاخرى .

وبعد ان غادر البحارة البرتغاليون المقر الحكومى الى سفنهم الراسية فى ميناء الشحر ، دعا الامير مطران الى « الديوان » عدداً من أعيان المدينة فحضروا وكانوا خليطاً من الفقهاء والتجار والحرفيين ومقادمة أقسام المدينة . فاطلعهم الامير على رسالة القائد البرتغالى وعلى ما بلغه عن حادثة قرية الخامى . كما أطلعهم على الرد الذى بعث به القائد البرتغالى . فأدرك المجتمعون أن البرتغاليين يضمرون شراً لاسيما وان الحاضرين من أهل الشحر لم يكن بينهم من سمع بحكاية البرتغالى المتوفى او بأن السلطان بدرا استولى على مخلفاته ، واحسوا بأنهم قادمون على أحداث لا يعلم مدى خطورتها الا الله .

وتقرر فى هذا الاجتماع ان يرحل الاهالى نساءهم وأطفالهم وممتلكاتهم الثمينة التى يسهل نقلها الى قرية تباله المجاورة للشحر ، وأن يستعدوا لأى نداء يصدره الامير اليهم فى اى ساعة من اليوم لو ان تطورا ذا بال طرأ على الموقف .

وتجدر بنا الاشارة هنا الى أن ترحيل النساء الى خارج البلدة كان مبنياً على تجربة سابقة . فأن مما تذكره السجلات التاريخية أن احد اقنود الملابارين الذين تعودوا زيارة السواحل اليمنية لفت أنظار القراصنة البرتغاليين ذات مرة الى أن أكبر نكاية يمكن ان توجه الى العرب هى الحاق الاذى او العبث بنسائهم لان فى ذلك جرحاً لشرفهم ، وان العرب ، بالنظر الى عقليتهم البدوية ، أشد تأثراً بموضوع العرض من غيرهم من الناس .

واتباعاً منهم لهذه المشورة القذرة راح القراصنة البرتغاليون يعتدون على

النساء العربيات في القرى الساحلية العربية وذلك ما قد صدر عنهم بشأن بعض النسوة في صور وسحار وراس باغشوه وبئر علي وبروم واحور والحديدة ... بل انهم كانوا يسبون النساء المسلمات المسافرات ، على السفن العثمانية وغيرها ، لاداء فريضة الحج . وقد انتشرت انباء هذه الفضائح البرتغالية في طول السواحل العربية وعرضها .

وفي عصر اليوم جاءت رسالة أخرى من القائد البرتغالي إلى الأمير مطران وأعيدت معها ، بكل جفوة ، الهدية التي كان الامير قد بعث بها صباح اليوم إلى القائد البرتغالي .. وكان مضمون الرسالة الجديدة انه يطلب بالحاح احضار ممتلكات البرتغالي المتوفى إليه على الفور ، وأنه سوف ينزل إلى الميناء ويأخذها بنفسه بالقوة إذا لم يحضرها إليه الامير مطران قبل غروب الشمس اليوم . وغادر البحارة البرتغاليون « الديوان » دون أن يطلبوا ردا من الامير على هذا « الانذار » .

فهل كان صحيحاً أن برتغالياً مات بالشحر واستولى السلطان بدر على تركته كما يزعم القائد البرتغالي ؟

فلنترك الاجابة على هذا السؤال للمؤرخ البرتغالي كاستنيدا الذي رافق هذه الحملة الانتقامية .. قال كاستنيدا في سجل رحلته : (لقد قرر لويز أن يهاجم الشحر متظاهراً بعذر واحد وهو أن الشحر مدينة خاضعة لملك عدن) (٧٩) ...

وانا لندرك ، من هذا التعليل ، إن ذنب الشحر — فلك الذنب الذي سوف تعاقب الآن عليه ، هو أنها كانت تحد عدناً بأسباب المقاومة ضد الغزو البرتغالي . أما القول بأنها خاضعة لملك عدن — على حد تعبير كاستنيدا — فان الخضوع في حد ذاته لم يكن واقعاً وأن الولاء لايعني التبعية أو الخضوع بأي حال من الاحوال . لكن الواقع كان أن الشحر كانت عنصراً هاماً في المقاومة العدنية وهناك يكمن كل مبرر للبرتغاليين للانتقام منها بعد أن استعصى عليهم احتلال عدن (٨٠) . أما « حكاية » البرتغالي المتوفى

بالشحر واستيلاء السلطان بدر على ماله فلم تكن إلا المدخل المفتعل للانتقام من الشحر .

وأدرك الأمير مطران ما كان يجول بخاطر القائد البرتغالي ، وانه عازم عزماً أكيداً على القيام بعمليات تأديبية ضد أهالي الشحر . وعليه . فان الأمير مطران ، لدى تلقيه الانذار طلب حضور الاشخاص الآتي ذكرهم إليه ، حيث أنه قد تعود الاستشارة برأيهم في الملمات وهم :-

١- الفقيه العلامة الشيخ يعقوب بن صالح الحريضي ، مدير مدرسة باهارون.

٢- الفقيه الشيخ أحمد بن عبدالله بالحاج بافضل ، مدير مدرسة بافضل .

٣- الشيخ سالم بن صالح باعوين المهري ، تاجر .

٤- الشيخ حسين بن عبدالله العيدروس ، تاجراً [١] .

٥- الشيخ أحمد بن رضوان بافضل ، تاجر

٦- الفقيه الشيخ فضل بن رضوان بافضل ، مدير مدرسة باسير .

وتدارس الموقف معهم واتفقوا على مايلي :-

١- إعادة تنبيه الأهالي إلى الاسراع بنقل نسائهم وأطفالهم إلى تبالة(٨١) والقرى المجاورة .

٢- تكوين قيادات من مقادمة الحارات وأعوانهم للمقاومة في الاقسام الرئيسية في المدينة .

٣- تخصيص فرق لمكافحة الحرائق ولاغاثة الجرحى ودفن القتلى .

٤- حث الناس على اجتناب السرقات والنهب والسطو أو الاعتداء على أفراد الجاليات الاجنبية المقيمين في المدينة ، وعدم التعرض لممتلكاتهم بأي أذى .

١- أنظر الملحوظة ١٣٩ في فصل الحواشي من هذا الكتاب.

٥ــ أن يتحدث ، فى اليوم التالى (الجمعة) ، الشيخ أحمد بن عبدالله بالحاج بافضل إلى المصلين فى الجامع ويحثهم على المقاومة والدفاع عن وطنهم وأموالهم وأعراضهم .

٦ــ إرسال رسالة مستعجلة إلى الامير عطيف بن على بن دحدح ، قائم مقام السلطان بدر بمنطقة المشناص ، يطلب النجدة السريعة وشرح الموقف له .

٧ــ الاتصال بالقائد البرتغالى والدخول معه فى حوار مطول لكسب الوقت ، على أن يتولى هذه المهمة كل من الشيخ حسين بن عبدالله العيدروس والشيخ فضل بن رضوان بافضل ، وأمير البحر الشيخ مبروك بن سليمان حنين ، وكاتب الأمير مطران الشيخ عبدالله بن عوض بامختار .

٨ــ إرسال تقرير إلى السلطان بدر عن الموقف وعما أتخذ من إجراءآت مستعجلة فى الشحر (وكان قد بلغ الامير مطران أن السلطان فى قرية غيل بن يمين (٨٢) فى مؤتمر مع مقادمة قبيلة الحموم ، فى طريق عودته إلى الشحر) واستعجال مقدمه إليها .

وانتهى الاجتماع وتفرق المجتمعون ، وكان قد أوكل إلى كل واحد منهم الاتصال بمقدم معين من مقادمة الحارات لترتيب مايلزم اتخاذه من استعداد للطوارئ ، على أن يعودوا إلى « الديوان » بعد انجازهم مهامهم ليكونوا إلى جانب أمير البلد فى المساء لمراقبة التطورات ومساعدة وارشاد مقادمة الحارات .

وفى تلك الامسية ، وبعد أن انتشرت أنباء حادثة الحامى وتفاصيل الاتصالات التى جرت بين البرتغاليين والامير مطران ، ساد أرجاء المدينة ذعر شديد ، فخرجت الأسر من الشحر إلى تبالة والبعض منها ذهب إلى قريتى زغفة والحوة (٨٣) . وأقفل التجار حوانيتهم وطفق الناس يترقبون تطورات الموقف ويتطلعون إلى اجتماع آخر يدعو إليه الامير مطران ، ويناقشون ماجتمل أن يتحدث فيه بعد صلاة الجمعة ، الشيخ أحمد بافضل .

ولم تكن سوق الشحر على عادتها من الازدحام بالناس عصر كل يوم ولى مغرب ذلك اليوم كانوا قليلين أولئك الذين خرجوا الى ساحة السوق لقضاء حاجاتهم ، وفى الواقع لم يكن فى السوق ما يشجع على التجول فيها ، لان معظم الحوانيت ظلت معلقة منذ الظهر . . حتى باعة السمك غادروا منطقتهم من السوق فى وقت أبكر مما تعودوا فيه فى المعتاد . ومع ذلك خرج الى ساحة السوق بعض الاشخاص للفضول ولاستشاق آخر الاشاعات والتعليقات .

أما اصحابنا الستة الذين تقدم ذكرهم ، فقد عادوا الى «الديوان» فى أوقات مختلفة من المساء وأطلعوا الامير مطران على نتائج اتصالاتهم بمقادمة الحارات وعلى ما عمله اولئك المقادمة من ترتيبات عاجلة لمجابهة الطوارئ . وأخبروه أيضاً ان كل واحد منهم «الستة» سيتخذ له مكاناً معيناً فى أقسام المدينة للاتصال بالاهالى والعمل معهم يداً واحدة . وقضى الستة النصف الاول من الليل فى «الديوان» ثم تفرقوا الى قياداتهم المختلفة .

ومضى الليل بطيئاً ، او هكذا خيل للبعض ، وشاهدت الشحر خلاله حركات محمومة . . تجولات فى الشوارع فى شبه حراسات ليلية خشية ان يأخذهم البرتغاليون على غرة . . وأفراداً يسرعون الخطى فى اتجاهات منافذ المدينة للخروج بنسائهم الى الريف القريب . . ورجالا ونساء يسعون فى اتجاهات مختلفة لشراء ، من حوانيت الحارات ، لوازم منزلية اثناء المفاجآت .

وكان أهل الحارات يجمعون السيوف والرماح والعصى والحجارة[1] فى مناطق استراتيجية من أقسامهم ويتنادون فيما بينهم باليقظة والحذر .

وطاف الامير مطران ، فى الهزيع الاخير من الليل ، على أقسام البلدة وشاهد ما يقوم به الاهالى من استعداد . . وقد أمر بتعزيز منطقة «القرية» لان هذا القسم القريب من الميناء سوف يكون اول الاقسام المداهمة . . وكان القصبه

---

(١) لا غرو فى ذلك ، فقد حارب السواد الأعظم من العوام والفلاحين المصريين — أهالى مدينة المنصورة خاصة — الصليبيين بالطقايع والحجارة كما يذكر ابن اياس فى كتاب «بدائع الزهور» .

يعقوب الحريضي متمركزاً في هذه الحارة .

وفي الحي الشمالي من المدينة المعروف الآن بحافة بالحاج تمركز الشيخ أحمد بن عبدالله بافضل في المدرسة التي هو مدير لها والتف حوله أهالي تريم المقيمون في الشحر . . والواقع ان الشيخ احمد من أهالي تريم وانما كان يعمل في مدرسة والده الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بافضل ، وقد استنفر بني بادثه التريميين المقيمين في الشحر فالتفوا حوله في هذا القسم من الشحر في تلك الليلة .

أما حامية البلد الصغيرة فقد أبقاها الامير مطران حول المؤسسات الحكومية وكان رجال الحامية الشيوخ مسلحين بالخناجر والقسي والسهام .

وفي داخل «الديوان» وحوله تمركز عدد من اهالي الشحر والى جانبهم اعداد من قبائل آل كثير وقبائل آل تميم المقيمة بالشحر .

فهل كانت الاستعدادات هذه في مستوى الموقف ؟

«لقد عقلها أهل الشحر وتوكلوا على الله» . . ذلك ما قاله الربان باصباح الذي اورد هذا الوصف الذي سقناه والذي كتبناه هنا باللغة الفصحى بدلا عن لغة «الربان» الدارجة . .

«على بركة الله .

البرتغاليون الاثمون يهاجمون مدينة الشحر

ومع بزوغ فجر يوم الجمعة العاشر من شهر ربيع الثاني سنة ٩٢٩ هـ ٢٨ فبراير ١٥٢٣م» نزل البرتغاليون في زوارقهم الصغيرة في دفعات الى ساحل الشحر وقد قدر عددهم بأربعمائة مقاتل مسلحين بالبنادق النارية وحاملين معهم معدات الحريق وكميات من البارود والنفط . وكان البعض يحمل سلالم خشبية ذات درجات سلكية ، وكان السلم الواحد يتسع لتسلق أربعة اشخاص عليه دفعة واحدة في صف واحد .

وأول ما فعله المعتدون (٨٤) انهم اضرموا النار في مستودعات الاخشاب

وفي أحواض بناء السفن الممتدة على الساحل ، ثم توغلوا في أزقة حارة «القرية» وكانوا يطلقون النار على كل من يصادفونه من الاهالي .

وسرت أنباء نزول المعتدين في المدينة فهرع الرجال — كل الى جماعته بسيوفهم ورماحهم وأقواسهم وعصيهم ، وكان البعض يحمل الخناجر والاحجار في أيديهم . وواجهوا المعتدين في مجابهة ضارية ان كانت بعيدة عن التكافؤ في السلاح فأن أقل ماتوصف به انها كانت عالية جداً في روح الاستماتة . لقد دبت روح الفداء في صفوف كل الجماعات المدافعة عن المدينة ، اذ كان كل فرد يشعر بأنه مهدد تهديداً سريعاً ومباشراً في روحه وماله وعرضه وشرف وسلامة وطنه .

وتفرق الغزاة في جماعات صغيرة في المدينة ، فمنهم من اقتحم المتطقة التجارية وراح يحطم أبواب الحوانيت المغلقة وينهب من محتوياتها ثم يشعل النار في الحانوت وما تبقى فيه من سلع .

وذهبت جماعة منهم الى اصطبل الخيل الكائن بساحة السوق فأطلقوا الخيل من أرسانها ثم أطلقوا خلفها الاعيرة النارية فهبت تجري مذعورة في الازقة تصدم وتدوس كل من تصادفه في طريقها من الشيوخ والعجزة .

وتوغلت جماعات من المعتدين داخل المدينة لاحراق الديار وقتل الاهالي . . فامتدت المعركة الى ما يعرف اليوم بحافة «باذيب» وحافة «بالحاج» وحافة «الحضار» . . واحرقت جماعة من البرتغاليين الاكواخ على من فيها من أطفال وعجزة في القسم المعروف الان بحافة «عبديد» .

ودارت معركة دامية في ساحة «القبان» (٨٥) المشهورة قتل فيها سبعة وثلاثين برتغاليا وهنديا وما يقرب من ثمانين رجلا من أهالي الشحر بينهم سبعة من أبناء العائلة المتوكية الذين اشتركوا في المعركة الى جانب أهل الشحر .

وفي حافة الحضار حاول البرتغاليون احراق مسجد الحضار ١ بأن كدسوا

---

١ — يستنتج من رواية الريان باسباع ان هذا المسجد انشاه الشيخ عمر الحضار ابن الشيخ عبد الرحمن السقاف . وفي تاريخ يحتمل ان يكون النصف الثاني من القرن العاشر الهجري قام الشيخ عمر الحضار بن الشيخ ابي بكر بن سالم (توفي بعينات سنة ٩٩٧هـ) بتوسيع او اعادة بناء هذا المسجد .

فى المسجد كميات من قصب الذرة الجاف وصبوا القار عليها وأشعلوا فيها النار بيد أن النار انحصرت فى قصب الذرة ولم تتعداه الى سقف المسجد وان كان باب المسجد الرئيسى قد أتلفته النار . وكانت الساحة الواقعة امام هذا المسجد تستعمل فى ذلك الوقت سوقاً فرعية للحطب وعلف البهائم .

وفى خضم هذا الاتون الدامى المتلهب سقط العشرات من أبناء الشحر بين قتيل وجريح .

وكان الامير مطران وصحبه الستة على رأس الكتل البشرية المتحمة فى قتال مرير مع البرتغاليين المعتدين .

وقد سقط الفقيه العلامة يعقوب الحريضى قتيلا فى حارة « القرية » وقتل الشيخ حسين العيدروس فى شارع السوق الرئيسى المعروف الآن باسم « مطراق حنين » ، وقتل الشيخ فضل بن رضوان بافضل فى ساحة السوق ، وقتل الشيخ أحمد بن عبدالله بالحاج بافضل بالقرب من مدرسة والده فى القسم الذى يعرف الآن بحافة « بلحاج » .

وكان جو المدينة مغلفاً بالدخان الكثيف المتصاعد من الحوانيت ومستودعات الاحشاب وحضائر السفن ومعاصر الزيت والابنية والاكواخ المحترقة .

وفى منتصف النهار انسحب البرتغاليون إلى الساحل حاملين معهم بعض القتلى والجرحى من أصحابهم .

وباتت مدينة الشحر ليلة حزينة كاسفة ... لكن المدافعين استطاعوا لم صفوفهم من جديد .

وانقطع وارد الماء الذى ينقل إلى المدينة على البهائم من آبار دفيقة (٨٦) ومسيال سمعون ، وراح أهل كل حارة يقتنون ماء الشرب لبيتهم ، وبعض الناس اضطروا إلى أخذ حاجتهم من ماء الشرب من بئر بن شكر (٨٧) . وبئر الشفاء (٨٨) الواقعتين داخل المدينة ..

وفى فجر يوم السبت الحادى عشر من ربيع الثانى سنة ٩٢٩هـ ١ مارس (١٥٢٣م) عاود البرتغاليون الهجوم على المدينة وكانوا أكثر تصميماً على الانتقام وخاصة بعد أن قتل وجرح منهم عدد ليس بالهين وذلك أمر لم يكونوا قد توقعوه ..

وركز البرتغاليون هجومهم - هذه المرة - على حارة « الحور » المعروفة الآن بحافة « الحوطه » وكانت أفخم وأغنى أقسام المدينة إذ كان يسكنها كبار التجار والموسرون ، وأضرموا النار فى العمارات .. كانوا يقذفون بالنفط والقنابر (٨٩) البارودية الملتهبة على أبواب المنازل ويطلقون النار على النوافذ . وفى هذه الحارة تصدت لهم فرق المقاومة بقيادة الشيخ أحمد بن رضوان بافضل وقتل من المعتدين والمدافعين خلق كثيرون . وكان البرتغاليون يقومون بالقتل والحرق فى آبار المساجد . وأحرق أهل الشحر عدداً من البرتغاليين الحرقى والقتلى وقد طاش الصواب وكان بالناس مثل الجنون .

وقتل فى هذا اليوم الشيخ أحمد بن رضوان بافضل فى مسيلة سمعون الغربية من عيار نارى بالقرب من مسجد الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن الزعبى (٩٠) . وقد مثل البرتغاليون بجثته .

وعاد البرتغاليون فجر يوم الأحد الثانى عشر من شهر ربيع الثانى سنة ٩٢٩هـ (١٥٢٣م) وحاولوا احراق المسجد الجامع وتمكنوا من اضرام النار فى المدرسة الملحقة به وفى ناحيته الشمالية . وصبوا النفط فى السقايات العامة القريبة من الجامع .. ولذلك كان أهل الشحر يطلقون على النفط « سم الكافر » .

أما الجماعة التى اتجهت إلى ساحة السوق للمرة الثانية فقد حصرتهم الفرقة التى يترءسها الشيخ سالم بن صالح باعوين المهرى فى سوق التمر وقتلتهم جميعهم ، وكان عددهم أربعين مقاتلا جلهم من البرتغاليين . وقتل فى هذه المعركة جمع كبير من أهل الشحر بينهم عدد من الصوماليين الذين

أشتركوا فى الدفاع عن المدينة ، كما قتل أيضاً الشيخ سالم باعوين بضربة سيف سلخت جانبه الأيسر .

واتجهت جماعة من البرتغاليين صوب «الديوان» لاحراقه بعد أن أحرقت حصن البلاد .. ودارت معركة بينهم وبين فرقة المقاومة التى يتزعمها الامير مطران .. وامتدت المعركة إلى الجانب الغربى من الديوان وهنا أصابت الأمير مطران رصاصة طائشة من بندقية برتغالية فاستقرت فى جبهته فخر ميتاً فى المكان الذى حفر فيه قبر الشهداء السبعة .

ثم انسحب البرتغاليون إلى سفنهم تاركين معظم قتلاهم فى ساحة السوق وأمام « الديوان » ، فاحرقهم أهل الشحر بعد أن قطعوا البعض إلى أوصال واشلاء .. وكانت الجموع تصيح ، وهى تلقى بجثثهم واشلائهم على الحطب الملتهب ، إلى سقر ، إلى سقر .

وبعد أن علم الغوغائيون من أهل الشحر بمقتل الامير مطران خرجوا إلى ساحة السوق يبهبون ماتركه العداة البرتغاليون سالماً من الحوائيت .. وقد أطلق المؤرخ بافقيه الشحرى على أولئك الغوغائيين اسم « شياطين البلد » واشترك فى النهب من سلم من أفراد الحامية .. وقد وصفهم الريان باسياخ بقوله :- (بعض رجال الرابطة (٩١) دخلوا مع النهابة وهم « الرماحة » (حملة الرماح) و « الريان » المسلحون بالاقواس والنبال (قاتلهم الله) ..

وبعد أن صعد البرتغاليون إلى سفنهم ضحى ذلك اليوم شاهدوا على الطريق الساحلية الشرقية جيشاً قادماً من المشقاص إلى الشحر .. فما كان منهم إلا أن اقلعت سفنهم (٩٢) من ميناء الشحر ترافقهم الخمس السفن البرتغالية التجارية .

ما بعد العاصفة

يقول المؤرخ محمد بن هاشم عن هذه المعركة(.. وارتفع الضجيج وعلا صراخ الصارخين بالقتال ، واذا بالافرنج يتسورون الديار وينهبونها

واذا بهم يحرقون ويخربون ، وتصدى الناس لقتالهم واستحر القتل فى الفريقين وقتل من أعيان الشحر جماعة منهم الامير مطران بن منصور والامام الشيخ أحمد ابن عبدالله (٩٣) ابن عبدالرحمن بافضل وكان هذا الامام ممن قاتل قتال الابطال وفعل الافاعيل فى مجالاته . . (٩٤) .

ويقول المؤرخ الشيخ سعيد بن عوض باوزير عن هذه المعركة : «وفى ربيع الاخر سنة ٩٢٩ هـ هاجموا (البرتغاليون) مدينة الشحر بأربع عشرة سفينة وأحلوا يشورون البيوت وينهبون ويحرقون ويخربون » . . وقال . . «وقد تصدى الناس فى الشحر لقتالهم فدارت معارك حامية فى شوارع المدينة وكثر القتل فى الفريقين» . . وقال . . «ودفن سبعة من الشهداء فى موضع وأحد لاتزال قبورهم معروفة الى اليوم فى حارة « عقل باغريب» . . وقال . . «واستمر القتال فى المدينة من يوم الجمعة الى يوم الاحد حيث اضطر البرتغاليون الى الانسحاب الى سفنهم (٩٥) .

ذلك ما ذكره مؤرخان محدثان اشتهرا بالدقة والتحقيق .

وقال السيد عبدالقادر بن شيخ العيدروس « من رجال القرن العاشر الهجرى» عندما ترجم الشيخ احمد بن عبدالله بأفضل . . «استشهد فى معركة الكفار لما دخل الفرنج الشحر وقتلوا الامير مطران وغيره وأسروا ونهبوا وذلك فجر يوم الجمعة عاشر ربيع الثانى سنة ٩٢٩ هـ» (٩٦) .

وقال السيد محمد بن عمر بافقيه الشحرى « وهو من رجال القرن العاشر الهجرى» . . (ابتدأ القتال بعيد الفجر ولم يقف له احد من الناس بل انهزموا جميعاً . ثم قال . . «واستشهد فى هذه الوقعة المعلم يعقوب بن صالح الحريضي وأحمد بن رضوان وأخوه فضل وجماعة سواهم رحمهم الله» . وقال . . «وفى هذه الوقعة استشهد الفقيه العلامة شهاب الدين أحمد بن الفقيه عبدالله بن عبدالرحمن بلحاج بافضل » (٩٧) .

ان رواية المؤرخ بافقيه على ما فيها من تناقض قد اعتمدها الدكتور مارجنت فقال ما ترجمته . . « ولم يقاوم الناس البرتغاليين » . . (٩٨) .

أما النقل التاريخي الذي اعتمدناه فهو ما أورده الربان باصباع ابن الشحر الذي عاصر الحادثة وعاش ويلاتها وآلامها ووصفها وصفاً مسهباً في كتابه « بهجة السمر في أخبار بندر سعاد المشهره » الذي أشرنا اليه أكثر من مرة في كتابنا هذا . .

لقد كانت محنة عاصفة تلك التي قاست مدينة الشحر حدتها ، وكان الخراب بارزاً في معظم أقسامها وخاصة في منطقتها التجارية .

ولقد دفعت الشحر من رجالها وأموالها ضريبة فادحة ، دفعتها في سبيل التضامن الاخوي مع عدن . . ولم تستنكف الشحر التعرض لتلك الكارثة من أجل اعلاء فكرة سامية هي فكرة المؤازرة والتأييد لشقيق تعرض بلده وأهله لكيد المستعمرين الطغاة .

ان الانفس الطاهرة قد ذهبت الى باريها سالكة أعظم سبيل وأقومه . . ولكنها تركت خلفها ذكرى عطرة تزف البنا في كل مناسبة وطنية درساً موضوعياً عن كيف تكون الاستماتة وكيف نحلو البتل وكيف يستسهل الفداء في الدفاع عن المعاقل ضد المعتدين .

وفي ظهر اليوم نفسه دخل جيش الامير عطيف بن علي بن دحاح مدينة الشحر ، فأعاد الامن والنظام الى نصابها ، والقى القبض على العابثين وزج بهم في السجن ، واستعاد من معظم « شياطين البلده جانباً من المنهوبات وزعت فيما بعد على من عرف من أصحابها . وعلى العموم فقد تنفست الشحر الصعداء بمقدم هذا الامير وجيشه اليها .

ان الامير عطيف ، كما يبدو لم يترك اية دقيقة تفوته . فلقد تحرك بجيشه من ريدة آل عبدالودود الى الشحر لتجدتها حال وصول طلب الامير مطران اليه . . ان المسافة بين الريدة والشحر لاتقل عن ثمانين ميلا بأقرب طرق القوافل وقد قطع الامير عطيف هذه المسافة بجيشه سيراً على الاقدام وعلى ظهور الابل المحملة في يومين تقريباً ، وتلك وايم الحق سرعة ملحوظة في التجهيز والحركة .

وكان عدد جيشه الذى قدم به الى الشحر ثمانمائة مقاتل جلهم من قبائل ثعين والسباح والمناهيل والحموم .

وراح الاهالى بمعونة جيش عطيف يطفئون الحرائق ويجمعون جثث القتلى من الشوارع ومن تحت الانقاض . . واعتنى بالجرحى بقدر ما كانت تسمح به الاحوال السائدة فى المدينة .

وفى عصر اليوم هبت عاصفة رملية شديدة على منطقة الشحر من جهتها الغربية زادت بها الحرائق اشتعالا . . وقد كانت مستودعات الاخشاب المحترقة تقذف بالشرر مع الريح الى مسافات بعيدة . فتسببت عن ذلك عدة حرائق فى حارة «المعرف» .

وفى المساء هطلت الامطار بغزارة طيلة الليلة . وكانت البنايات المحترقة تتهاوى تحت وطأة الريح والماء المنهمر من السماء مما أعاق جمع الجثث فى بعض أقسام المدينة . . وابتدأت العفونة ـ عفونة الاجساد البشرية ـ تنتشر فى أرجاء المدينة وخيف حدوث الاوبئة ، فأمر الامير عطيف بدفن الجثث حيث هى فى الازقة والشوارع والساحات .

أما جثث القادة السبعة فأن ستا منها ـ جثث الامير مطران ، والعلامة الحريضى ، والشيخ العيدروس ، وأحمد بن رضوان بافضل ، وفضل بن رضوان بافضل ، والشيخ سالم باعوين المهرى ، جمعت ، وكان بعضها ممزقاً ودفنت فى قبر واحد وهو القبر الذى أطلق عليه قبر « السبعة» . . والواقع ان جثمان الشهيد السابع ، وهو الشيخ احمد بن عبدالله بلحاج بافضل ، قد أصر أهالى تريم على دفنه داخل قبة والده « المعروفة الان بقبة بالحاج» وقد دفن فى الزاوية الشرقية الجنوبية من تلك القبة وقبره معمور الى اليوم وعلى أحد شاهديه اسمه ويوم استشهاده .

وقد علق الربان باسباع على المعركة بقوله :ـ

(هدت الناس يد وحده وبعضهم ما يملك فى السارحة رائحة ولكنهم أخوة

كل واحد يشوف دار التانى داره والعار عاره والخوخوه . واذا شافو جماعة من البردجيز الملاعين حملوا عليهم وذى يسقط يسقط وذى يقوم يقوم . والمصاويب يسحبوهم من كل حافة وعندنا قد عبروا بعيال سالم فيان تلاتهم مصاويب وعيال العول وأحد مقتول وواحد مصاب وعيال بالكور الذين مقاتيل وعيال باعرام خمسة مقاتيل وولد عبود بايعشوت مقتول . ذولا عيال حافتنا وجيرانتنا وكل حد فيه ذى فيه . والناس صابهم شئ من الغرام لان الحدة شى ما نعهده فى أهل الشحر والشجاعة لى أظهرها أهل البلادشئ ما نعهده الله قذف الايمان فى القلوب وقدها مجروحة من البردجيز الملاعين . والمشايخ قدام الناس ماحد خنى راسه ولاحد قصر كل واحد بغاهو الاولى ونسمع صياح الناس من العقل ومن مطراق حنين مثل موج الخريف ويطردون الملاعين البردجيز ومن لافوه راح عشا ابليس أخلهم الله والمقاتيل مزقلين فوق المقابر وفى المضايين والمولى نصر الاسلام والذى جرى فى الامة لها به أجر والله أعلم.

وعلق الربان على الحدث المزعج فى الشوارع عندما هطلت المطر قائلا : «سبحانة من تعزز بالقدرة وقهر العباد بالموت . رجال شجعان مثل الاسود أختلط دمهم ولحمهم فى المضايق واختلطت الوجيه النويرة بالتراب ولعاد اعترف زيد من عبيد لكن الرواح « الارواح» الطاهرة ارتفعت الى عليين . . شبان من عويلة العقل ومن المحرف ومن الحور والقرية شلوهم قطب فى زنابيل حد كامل وحد ناقص سبحانك ياعظيم الشأن لكنهم بردوا اكبادنا ومقبرة مول السقاية «٩٩» معاد شلت الناس اللهم انزل السكينة على الامات والابوه والاخوة والزوجات والابناء ، وهذا الحارى لنا به فخر ، والرجال ما خلقت الا لميد تموت على الشرف سبحانك اللهم وبحمدك اللهم احق المعتدين وانزل عليهم غضبك ونقمتك والله أعلم.

ان « هذا الحارى لنا به فخر» صدق الربان ياسباع .

انها مفخرة الانسانية جمعاء . .

ويذكر الربان ان الذين قتلوا من أهالى الشحر فى هذه الحادثة سبعمائة

واحد عشر رجلا بينهم ثمانية وخمسون من الصومال والهنديكيين ، والذين قتلوا من الغرباء ، ولعله يقصد أبناء وادى حضرموت المقيمين بمدينة الشحر ، كان عددهم مائتين وستة عشر رجلا .

وعدد المنازل التى تهدمت من الحرائق ثلاثمائة وعشرون دارا وكوخا . والحوانيت التى أحرقت و— أو نهبت عددها سبعمائة وأربعون حانوتاً . . واحرقت أثنتان وثلاثون معصرة زيت بعضها احرق مع الابل العاملة فيها .

الدرس العملى من الفاجعة

لم ينفرد « السبعة » بشرف الاستشهاد فى ميدان الفداء والتضحية ، ولكن كان الى جانبهم ، بطبيعة الحال ، العدد الكبير من أبناء الشحر والمستوطنين بها الذين استشهدوا فى المعركة ، معركة الانسان العادى الذى تجاهله تاريخنا اليمنى فى معظم أطواره . .

ان هؤلاء الشهداء السبعة كانوا قادة المقاومة والمشجعين عليها . ولقد سقطوا فى ساحات الشرف وهم يقاتلون جنباً الى جنب مع أخوتهم المواطنين ، ولذلك اصبحوا ، عن جدارة ، رمزاً للبطولة المثالية والقيادة الرشيدة والاستشهاد الحق فى سبيل الواجب .

وان تكريمهم بكلمات — اى كتاب — لن يكفى للاشادة بذكراهم الخالدة وانما هو مساهمة متواضعة فى اعلاء شأن كل مناضل عن الحق والخير والجمال

لقد أبى أهل الشحر ان يفروا من الميدان تاركين مدينتهم لقمة سائغة ، للعدوان والبطش . انهم أقاموا من أنفسهم سدوداً منيعة أمام عدو غاشم وهم يدركون انهم قادمون على مجابهة مع ذلك العدو ليست متكافئة وان بواعث الخذلان امامهم أكثر مما كانت أمام العدو .

ولكنهم صمدوا . .

لقد أعانهم الله وثبت أقدامهم ، فارتفعت معنوياتهم الى مستوى خطورة الموقف وذلك هو مبلغهم من الفخر .

الله أكبر . .

لقد جادوا بالموجود ، ولم يكن أسهل عليهم من الجود بأرواحهم فقدموها رخيصة ، وان ذلك لمن عزم الامور .

ولقد كانت همتهم أجل من جلائل الاعمال وأشد من الشدائد ، ولذلك صارعوا المنايا ثلاثة أيام لايعلمون خلالها ماذا سيفاجئهم به القدر .

رحمهم الله رحمة واسعة واثابهم بقدر ما أعطوا التجارب الانسانية العظيمة التى يوفقها الله الى السؤدد فتبلغ المرتقى السامى فى سجلات الخلود .

فما هو الذى نتعلمه من قصة اولئك الآباء البررة ؟

نتعلم ان العدوان لا يردعه الا الصمود والثبات فى وجه المكاره . . ولو لم يكن أهالى الشحر قد واجهوا البرتغاليين المعتدين بمثل ما قابلوهم به من استماتة لكان البرتغاليون قد هاجموا مدينة الشحر أكثر من مرة كما فعلوا فى مدن أخرى مثل كاليكوت ومسقط والحديدة وممباسا . ولقد أقدم البرتغاليون على أعمال قرصنة ، فى فترات لاحقة ، وعلى نطاق محدود ، فى ميناء الشحر كما سيأتى تفصيل ذلك ، ولكنهم انما فعلوا ذلك للابقاء على حالة الرهب من بطشهم حية فى نفوس اليمنيين وساعدهم فى ذلك التخاذل الذى أبداه السلطان بدر أبو طويرق تجاه أفاعيلهم . . ومهما كانت طبيعة أفعالهم فانهم لم تؤاتهم الجرأة على النزول مرة أخرى الى البر مهاجمين كما فعلوا فى المرة السابقة ، مع أن مدينة الشحر لم تكن محمية بالكثرة من الجند الاحينما يكون السلطان بدر مقيما بها وكان هو دائم التجوال فى أرجاء سلطنته ، لكن المدينة اصبحت فى نظر البرتغاليين بعد عدوانهم الآثم ، مرهوبة الجانب بأهلها الأباة .

ونتعلم ان القيادة الصالحة المؤمنة بحقها وبحق شعبها فى الحياة الكريمة تستطيع أن تجعل من الاتباع العزل جنداً اولى بأس وعزم شديدين فى أحلك الظروف .

ونتعلم ان التلاحم المؤمن بين القادة والاتباع فى وحدة الآمال والآلام والهدف أمر جوهرى لنصب الجهود الجماهيرى فى بوتقة واحدة ، وعندئذ يحقق القادة بالاتباع المعجزات ويطلون على العالم بانجازات تتلألأ الصدور وتعطر صفحات التاريخ بأريج منعش من عظمة القدوة وطيب الذكرى .

ونتعلم ان التاريخ المسجل لايبخس البطولة حقها ، ولئن عصفت الايام ما لتلك البطولة من حق ، عادت الايام فسلمت مما لتلك البطولة من حق على التاريخ ان يبرزه بأحرف من نور ، كحركة انسانية ، فى أجمل حلة وأبهى طلعة مترجمة بذلك وجوب أن يبقى الانسان مكرماً عزيز الجانب فى وطنه بين أهله وذويه .

ونتعلم ، وفى كثير من المرارة ، أن الحكم الفردى لايقيم للمحكومين وزناً إلا بمقدار مايسهم المحكومون فى دعم الحكم الفردى وفى تقوية شوكته ليكونوا هم بذلك مطيته الذلول وبقرته الحلوب .

ونتعلم أن أبطالنا «السبعة» المعروفين واخوتهم «المئات» المجهولين ، قد هيأت لهم الاقدار ، منذ الازل ، تأدية رسالة عظيمة إلى الاجيال القادمة — رسالة درس وعبرة تدفع إلى الجليل من الاعمال الوطنية المثمرة .

ونتعلم انه يكفى المرء شرفاً أن يصبح فى أدوار التاريخ مصدر الهام وسراجاً وهاجاً — بعمله الصالح — ينير معالم كل طريق قويم للسالكين عليه إلى أبد الآبدين .

ونتعلم اننا أشد مانكون حاجة ، فى مسيرتنا الطويلة المليئة بالمخاطر والمخاوف والمتاهات والمثبطات للعزائم — أشد مانكون حاجة إلى الارشاد والتوجيه العمليين اللذين يخلفهما لنا سلفنا الصالح ببطولته التاريخية المثالية .

وأخيراً نتعلم ، بكل فخر ، أن جماهير مدينة الشحر ، فى تلك الحقبة من تاريخها المجيد ، هى ذلك البطل التاريخى العملاق .

موقف السلطان بدر أبي طويرق من البرتغاليين

عاد السلطان بدر بوطويرق إلى الشحر بعد اسبوع من حدوث غارة البرتغاليين الانتقامية على المدينة ، فوجد الناس يوجهون اليه تهمة الاهمال لتركه مدينة الشحر بدون حامية منيعة أثناء غيبته في وادي حضرموت .

وكان اعتذار السلطان بدر انه لم يكن هو أو أحد آخر يتوقع أن البرتغاليين سوف يشنون تلك الغارة الغادرة على الشحر لان نشاطهم القرصني ظل مقتصراً على أعالي البحار ، وانه لم يكن يتوقع أن البرتغاليين سوف يعاقبونه على تأييده لعدن .

ولم يكن العذر الكسيح الذي قدمه السلطان بدر مقنعاً ، فظل الناس يلومونه على قصر النظر وعلى عدم أخذ الامور بما كانت تتطلبه من اعداد ويقظة .

وبطبيعة الحال كانت كلمة السلطان بدر ، في مثل ذلك الحوار ، هي الكلمة الاولى والاخيرة ، لان أحداً من المتصلين أو المحيطين به لم يكن يجرؤ على مناقشته الحساب والا لكان قد ذكره بان قرصنة البرتغاليين لم تكن مقتصرة على أعالي البحار ، وأنهم لم يكونوا ملزمين بحصر نشاطهم في نقطة معينة ، وبأن الوقوف في وجه الاطماع البرتغالية في عدن مفروض فيه أن يعرضه لنقمتهم وبأن هذه الاسباب جديرة بأن تكلفه اتخاذ الحيطة الكافية ضد أية نقمة محتملة .

وان من تحصيل الحاصل القول أن البرتغاليين كانوا يتمتعون بتفوق في النواحي العسكرية وفي أساليب الملاحة البحرية ، بيد أن الدلائل برهنت على أن تفوقهم هذا لم يعد كافياً لهم ليشجعهم على التمادي في التنكيل بأهالي المنطقة المقاومين وانهم ، في وجه المقاومات القوية لم يستطيعوا تحقيق أي نصر ساحق وذلك ماحدث في سحار وفي ديوء (الهند) وفي سقطره وفي الشحر وفي سيحوت .

لقد كان السلطان بدر واقعاً تحت تأثير عقدة الشعور بالعجز أمام

البرتغاليين فكان تجاملهم ويسكت على تصرفاتهم فى حق رعاياه وذلك ليتكافأ شرهم، على حد تعبير المؤرخ عبدالله محمد باسحاله الشحرى (١٠٠) .

حقيقة كان السلطان بدر ميالا إلى تفادى شر البرتغاليين لكن ذلك الميل منه لم يكن من أجل أن يخفف أذى البرتغاليين على رعاياه ، ولكن ليبقى الشحر فى يده وليظل هو الملك المتصرف فيها وفى رقاب أهلها ، ولو تعرضت المدينة وأهلها للخراب .

لقد عرض المشائخ آل العمودى (١٠١) كما عرضت عليه قبيلة سيبان تزويده بالسلاح والرجال لتعزيز موقفه ضد البرتغاليين ، ولكن السلطان بدرا رفض تلك المعونة لان الشحر (منه واليه وما لحد شأن فى خيرها وشرها) كما قال الربان باسباع عن هذه المناسبة.

ان الخصومة التى نشأت بين السلطان بدر وأهل الشحر وجماعة من قادة الرأى بحضرموت الداخل كان سببها أن أهل الشحر ومن كان يساندهم من الحضارمة يرون أن البرتغاليين ماكانوا ليغيروا على السفن العربية وغير العربية فى ميناء الشحر والموانىء الحضرمية المجاورة ، لو أن السلطان بدراً حصن تلك الموانئ بمن يدافعون عنها ضد المباغتات البرتغالية .

ولم يك السلطان بدر يشكو الضيق المالى ولا العوز فى الرجال ولكنه كان يبدد أموال الدولة فى غزوات وفتن داخلية يثيرها هو بتصرفاته الهوجاء . فكان يعود إلى الشحر من بعد أن أخمد فتنة محلية ، ثم لا يلبث أن يذهب فى الثو إلى اثارة أو اخماد فتنة داخلية أخرى . وظل السلطان بدر — كما وصفه السيد محمد بن هاشم (ينتقل من بقعة إلى أخرى لمعالجة المشاكل ولسان حاله يقول : كلما داويت جرحاً سال جرح (١٠٢) . والواقع انه كلما داوى جرحاً أسال جرحاً آخر ..

وكان البرتغاليون يدركون الحال الذى كان عليه السلطان ، ولذلك فانهم كانوا مطمئنين إلى أن غاراتهم على الموانئ الحضرمية لن تقابل بأية مقاومة من السلطان بدر لأنه كان فى شغل شاغل باحواله الداخلية .

لذلك تكررت غارات البرتغاليين على السفن الحضرمية فى أعالى البحار وفى الموانئ المجاورة رغم أن القراصنة البرتغاليين لم يجرؤا على النزول مرة أخرى لا فى الشحر ولا فى ما جاورها من موانئ .

ولم يك السلطان بدر متوقعاً أية نجدة له لا من عدن ولا من أصدقائه الظاهريين فى أعالى اليمن لأنهم كانوا غارقين إلى الاذقان فى اضطراباتهم الخاصة .

ولقد حاول السلطان بدر أن يعقد لواء الصداقة بينه وبين البرتغاليين على أساس الكف عن العدوان على رعاياه ، ولكن البرتغاليين ، فى الوقت الذى أظهروا فيه الود له وكانوا فيه يترددون على ميناء الشحر متاجرين ، لم يكونوا مرتاحين لنشاط السفن الحضرمية فى أعالى البحار وفى شواطئ حوض المحيط الهندى . لذلك كان البرتغاليون يغيرون على السفن الحضرمية وكأنها لاتعنى السلطان بدرا فى قليل أو كثير . وقد رضى السلطان بدر ، بتخاذله ، أن يقيم البرتغاليون عازلا دموياً بينه وبين رعاياه ثم قام هو بتقوية هذا العازل بعدم مبالاته باحتجاجات الحضارم على رفضه عرضاً تقدم به الفقيه الشيخ عمر بن محمد العمودى مولى قيدون لمساعدة السلطان بدر على شن جهاد مقدس ضد البرتغاليين .

وكان السلطان بدر ، فوق ذلك ، يمنع أية مقاومة ضد البرتغاليين فى ميناء الشحر ، لانه بحكم عقدة الشعور بالعجز ، بات حريصاً على مسالمة البرتغاليين بأى ثمن — وقد دفع أهل الشحر والحامى وبقية الحضارم ذلك الثمن الباهظ .

ولربما استطاعا الاعتذار للسلطان بدر عن اهمال قرصنة برتغالية معينة تشن على رعاياه فى أعالى البحار لانه لم يكن يملك مايدفع به مثل تلك الاعمال العدوانية .

ولربما قيل ، فى مجال الاعتذار للسلطان بدر ، أن الغارة الانتقامية على الشحر حدثت فى وقت لم يكن فيه هذا السلطان قد تمرس بشؤون الحكم ولم يكن مدركاً تماماً معضلات علاقاته الخارجية .

ولكن تحالف السلطان بدر ، فيما بقي من السنين ، عن صد البرتغاليين المعتدين عن العدوان على رعاياه في عقر دارهم ، رغم قدرته المالية ووفرة رجاله وشدة ميل الأهالي أنفسهم إلى ردع المعتدين ، لايعفيه ، في نظرنا ، من المسؤولية التاريخية .

ولكي نتصور مبلغ الرزء الذي امتحن به أهالي الشحر والمهرة وغيرهم من اليمنيين من جراء سلبيات السلطان بدر ، سوف نورد في الفصل الآتي نماذج مما حوته كتب التاريخ من أنواع القرصنة البرتغالية حول سواحل جنوب بلاد العرب .

وعندما نقرأ تلك الحوادث علينا أن نتذكر أيضاً أن السلطان بدر لم يقف من تلك الحوادث موقفاً سلبياً فحسب ، ولكنه أيضاً ، إلى جانب الرزايا التي أنزلها البرتغاليون برعاياه ، كان يجعل من نفسه سوط عذاب ، على أولئك الرعايا العزل ، في بعض الأحيان ..

نماذج من القرصنة البرتغالية

شعبان سنة ٩٣٠هـ (١٥٢٣م)

اعترض البرتغاليون السفن الحضرمية القادمة من شرقي افريقيا واغرقوا منها ثلاث سفن يمتلكها أهل الخامي وأربع سفن لأهل صور وأهل الكويت .

جماد الأولى سنة ٩٣١هـ (١٥٢٤م)

هاجم الافرنج مدينة قصير وأحرقوا عدداً من سفن الأهالي الراسية بها وأسروا بعض بحارتها .

(*) المصادر : الريحان ياسباع-باعزمة -باعقيه -الدكتور سارجنت. ويلاحظ أننا أبقينا بعض النصوص كما وردت في الأصول على مافيها من أخطاء لغوية طفيفة وكلمات عامية.

محرم سنة ٩٣٢هـ (١٥٢٥م)

اعترض الفرنج سفن الحضارم القادمة من الهند واغرقوا منها خمس سفن لاهل الشحر واسروا عدداً من بحارتها أفتداهم أهل الشحر فيما بعد .

شعبان ٩٣٣هـ (١٥٢٦م)

أغار البرتغاليون على زوارق السمك بقرية روكب (١٠٣) واغرقوا ودمروا عدداً منها . ثم اتجهوا إلى مرسى خلف (المكلا) حيث أحرقوا عدداً من هوارى أهل المكلا وثلاث سفن صومالية صغيرة كانت محملة بالأغنام .

جماد الاولى سنة ٩٣٤هـ (١٥٢٧م)

اعترض الفرنج سفن الحضارم القادمة من الخليج العربى وأغرقوا اربع عشرة سفينة يملكها أهل الحامى .. وقد أحدث هذا العدوان ضجة كبرى فى ربوع حضرموت ، من ذلك أن الفقيه الشيخ عمر بن محمد العمودى قدم إلى الشحر يصحبه مشايخ قيدون (١٠٤) وقبائل سيان للاشتراك فى جهاد ضد الافرنج .

جماد الاولى سنة ٩٣٥هـ (١٥٢٨م)

دخل البرتغاليون ميناء الشحر واختطفوا منها سفينة كانت محملة ببضائع محلية صادرة إلى الهند ، غير أن مالك السفينة استطاع أن يفتديها فى مدينة حبريج بمبلغ ١٨٠٠ أشرفى . وفى نفس السنة أحرق البرتغاليون مدينة عمانا وأحرقوا فى مرساها بعض السفن العربية من بينها ثلاث سفن حضرمية

رجب سنة ٩٣٦هـ (١٥٢٩م)

قدمت إلى الشحر سفينة افرنجية بها عدد من الاسرى المحنيين الهامين وطلب الفرنج السماح من السلطان بدر لهم ولبعض أسراهم بالنزول فى أمان إلى سوق الشحر لشراء حاجاتهم . فسمح السلطان بدر بطلبهم .. ثم غادروا

الشحر هم واسراهم العرب إلى مقديشو حيث سباع الاسرى كرقيق . وعند حدوث هذه الحادثة كان الشيخ عبد القادر عمر باعزمة المذهب بالشافعي الصغير ، وهو من أبناء مدينة الشحر ، موجوداً في الشحر . وقد اعترض بشدة على عدم تدخل السلطان بدر لافتداء الاسرى اليمنيين المسلمين أو احتجازهم لديه بأية صورة . وعلى أثر هذه المشادة التي صارت بينه وبين السلطان بدر انتقل الشيخ عبدالقادر باعزمه إلى عدن محتجاً على موقف السلطان المشين من الاسرى المسلمين .

محرم سنة ٩٣٧هـ (١٥٣٠م)

اعترض الفرنج سفينة عربية بالقرب من الشحر ونهبوا حمولتها . وبالقرب من الحامي اعترضوا سفينة مهرية ووقع قتال بين المهره والافرنج فقتل ثلاثة من المسلمين بطلقات نارية . ونهب الفرنج عدداً من السفن الهندية الراسية في ميناء الشحر . واعترض الفرنج واختطفوا سفينة لاهل الحامي بالقرب من راس فرتك (١٠٥) كانت قادمة من مسقط . ثم أعادوا السفينة بعد أن افتداها أهل الحامي . ولكن البرتغاليين رفضوا تسليم الناخوذه والملاح وأخذوهما أسيرين إلى الهند ولم يعلم عنهما شيء بعد ذلك .. واعترض أهل قصير سفينة برتغالية صغيرة وأغرقوها بعد أن ذبحوا جميع بحارتها الفرنج .

جماد الثانية سنة ٩٣٨هـ (١٥٣١م)

ظهرت في الافق سفن برتغالية ولبثت أياماً تعترض كل سفينة قادمة إلى ميناء الشحر . واستطاعت احدى السفن الهندية الافلات من الحصار البرتغالي ودخلت ميناء الشحر فطاردها البرتغاليون ولكن أهل الشحر حيوا لنجدتها فقر البرتغاليون المغيرون .

وفي رجب من هذه السنة اعترض الفرنج سفينة هندية أخرى داخلة إلى الشحر ولكن النوخذه وجهها نحو الساحل وحطمها قبل أن يستولي الفرنج عليها .

وفى شعبان من هذه السنة دخل الفرنج الشحر واختطفوا منها سفينة من سفن التاجر يوسف التركى .. أما السفن القادمة من اليمن إلى الشحر فقد أغرقها اليمنيون على شاطئ مربر (١٠٦) وجنحت سفينة هندية إلى الساحل حتى أن يستولى عليها الفرنج ، وكانت محملة بالرصاص والاوانى النحاسية .

وفى أول رمضان من هذه السنة هاجم الفرنج أربع سفن لاهل الخامى كانت راسية فى ميناء الشحر ونهبوا ما كان بها من بضائع .

وفى الخامس عشر منه وصلت إلى ميناء الشحر أربع سفن برتغالية حربية ترافقها سبع سفن برتغالية من ناقلات البضائع . وكانت هذه التجهيزة بقيادة القبطان البرتغالى انطونيو دى سلدانا Antonio de Saldanha واستولى البرتغاليون على عدد من السفن كانت راسية فى ميناء الشحر غير أن يوسف التركى — وهو أحد أهالى الشحر — قاومهم بالبنادق والمدافع ولكن أعوان السلطان منعوه من الاستمرار فى المقاومة ومكنوا البرتغاليين من الفرار بغنائمهم . وعلق المؤرخ عبدالله بن محمد باسخله الشحرى على هذه الحادثة بقوله : (غريب جداً أن يمنع عمال السلطان يوسف التركى ومن كان معه من أهل الشحر الشجعان من الوقوف فى وجه الفرنج . المعتدين وقد أمتنع يوسف التركى من الانصياع لاوامر عمال السلطان ولكنهم هددوه بان سجنوا تجارة احدى سفنه وأخذوا جانباً من آلات (١٠٧) سفنه الاخرى .. وقد أحدث تصرف عمال السلطان هذا سخطاً وفزعاً عند الاهالى . ولقد ظن عمال السلطان انهم بفعلهم هذا يكسبون رضا الفرنج المعتدين ولكنهم أغضبوا المسلمين وأغضبوا الله فلا حول ولا قوة الا بالله) .

رمضان ٩٣٩هـ (١٥٣٢م)

اقتحم الفرنج ميناء بروم (١٠٨) وأحرقوا سبعاً من السفن اليمنية والحرمزية والعمانية والمشطنة، بها .. وبعدها ذهبوا إلى قرية راس باغشوه (١٠٩) وأحرقوا جانباً من ديار الاهالى المصنوعة من القش وقتلوا ثلاثة من رجالها وأسروا اثنين.. وفى أواخر هذا الشهر دخلت سفينة برتغالية إلى خلف (المكلا)

وأحرق رجالها ثلاث سفن صومالية . كانت راسية بمطرح خلف ، بعد أن نهبوا حمولتها من الاغنام والسمن وبعض العبيد .

رمضان ٩٤٠هـ (١٥٣٣م)

دخل الفرنج فى اثنى عشرة سفينة إلى ميناء الشحر ونهبوا سفينة هندية كانت راسية . وكانت بالميناء ثلاث سفن يمنية تهامية استطاعت الخروج إلى الساحل قبل أن يستولى عليها الفرنج ، وبعد الحادثة اعادها أهل الشحر إلى البحر سالمة ..

وفى شوال من هذه السنة اختطف الفرنج سفينة هندية بالقرب من ميناء الشحر .. واغرضوا سنابيق (١١٠) السمك التابعة لاهل الشحر وهى قادمة من روكب وأغرقوا واحداً من السنابيق وأسروا رجاله الاربعة . وفى عين بامعيد (١١١) داهم الفرنج سفينة لاهالى الشحر ونهبوا جانباً من حمولتها من البز والبهارات ثم أغرقوها وأسروا بحارتها وكانت عليها بعض النساء الهنديات المسافرات إلى الاراضى المقدسة لاداء فريضة الحج .

جماد الثانية سنة ٩٤١هـ (١٥٣٤م)

دخلت أربع سفن برتغالية ميناء الشحر وعليها عدد من الاسرى الكوبتيين والعمانيين والهنود .. وطلب الفرنج من السلطان بدر السماح لهم ولسفنهم بالتوجه إلى الشحر .. واقتدى السلطان بدر وتجار الشحر الاسرى جميعهم وسمح للسفن الفرنجية بالتتويه فى الشحر . وقد علق المؤرخ عبدالله باسخله الشحرى على هذه الحادثة بقوله : (ان السلطان عامل الافرنج هذه المعاملة الحسنة ليتكافى شرهم) ..

ربيع الاولى سنة ٩٤٢هـ (١٥٣٥م)

زارت سفن برتغالية مدينة الشحر ونزل بحارتها إلى السوق وباعوا واشتروا .. وعند مغادرتهم المدينة قدم السلطان بدر للقبطان البرتغالى فرساً جميلة وأهدى أعوان القبطان خيلا أخرى .

وفى ٢٣ منه وصلت أنباء إلى الشحر تفيد أن الفرنج هاجموا مدينة أحور (١١٢) ونهبوها وأحرقوها . ومن بين الذين نهبت أموالهم وأحرقت سفنهم جماعة من قبيلة الزويدى (١١٣) المهرة . ولما بلغت الانباء إلى الاقليم المهرى هاجم الزويديون ، فى الحادى عشر من شهر ربيع الثانى ، سفينة برتغالية كانت راسية فى ميناء سيحوت (١١٤) وأحرقوها وقتلوا عدداً من بحارتها وأسروا الباقين .

ربيع الثانية سنة ٩٤٢هـ (١٥٣٥م)

فى العشرين من هذا الشهر دخلت عدة سفن برتغالية ميناء الشحر ولما علموا بما حدث لاخوانهم فى سيحوت غادروا الميناء مسرعين إلى الاقليم المهرى للانتقام وذلك لغرض اعتراض السفن المهرية القادمة من شرق افريقيا . بيد أن سفينتين برتغاليتين دخلتا مدينة قشن ووجدتا بها سفينة مهرية عليها مئة جندى مهرى فى طريقهم إلى عدن مبعوثين من قبل الشريف عبدالله بن شيخ العيدروس١ . وقد أطلق البرتغاليون النار على المهرة ثم أقتربوا منهم والقوا عليهم القنابر المشتعلة لاحراق السفينة المهرية ولكن المهرة أسرعوا بالقاء المواد المحرقة إلى البحر . وقد أصيب بعض المهرة بحروق.

وفى شهر رجب من العام نفسه نهب الفرنج فى عرض البحر سفينة هندية حاملة أقمشة لاهالى الشحر .. ودخل اللصوص البرتغاليون بهذه البضاعة المنهوبة إلى الشحر . فاشتراها السلطان بدر من البرتغاليين بثلاثة آلاف أشرفى . وفيما بعد أتضح من الاسماء والارقام المكتوبة على أكياس القماش انها تجارة آل الشحر . فلم يسع التجار إلا أن اشتروها من السلطان بدر بسبعة آلاف أشرفى مضافاً اليها ثلاثمائة أشرفى للواسطة . وعلق الريان باسباغ على هذه الحادثة بقوله : (المعلم الشيخ أحمد إبن سعيد (١١٥) باغريب عور (١١٦) على السلطان بدر على ذى المعاملة التى لا تليق ضد الرعية . فقام السلطان بدر وجلد باغريب وحبسه . وبعدها أهل الشحر معاد حضروا مجالس السلطان لانهم

١- أنظر الملحوظة ١٤٠ من فصل الحواشى من هذا الكتاب.

حقابن عليه من الذى جرى فى الشيخ باغريب والمذكور ليس هو تاجر ولكنه رجل شجاع من أهل الخير قال كلمة حق والا كيف سلطان يتاجر فى مال منهوب حق رعيته وبدل مايرده لهم يقوم يكلفهم ثمنه مضاعف . والناس كانت مكلوفة تشترى البز لاجل قادمين على رمضان وعيد . وبعد ذلك حبس السلطان انه غلطان وخرج باغريب من الحبس وعطاه رضوه مقابل الجلد ولكن باغريب ماقبل العطاء . ورد السلطان لآل شبام أربعة آلاف أشرفى وهو الفرق بين الذى دفعه للبردجير والذى أخذه من التجار والله أعلم) ..

وفى هذا الشهر عين السلطان بدر الامير أحمد بن مطران بن منصور حاكماً لمدينة الشحر .

تلك حوادث قليلة ، ولكنها دالة ، اقتطفناها ، من عشرات الحوادث المائلة من سجلات المؤرخين باسباع وباعرمه (١١٧) وباسخيله وبافقيه وبن حميد (١١٨) .. وقد حورنا بعض كلماتها العامية إلى كلمات فصيحة دون اخلال بمعناها .

موقف السلطان بدر ابي طويرق من قادة الرأي المحلى

مما تقدم ذكره من حوادث يستطاع الحكم على السلطان بدر ابى طويرق بانه كان مقصراً كل التقصير فى حق رعاياه ، وانه لم يكن يأخذ الامور مأخذ الحزم ضد العابثين بأمن بلاده ومصالحها الحيوية .

وارتفعت أصوات النقد لمواقفه المخزية من كل مكان بحضرموت .

ولم يكن موقف الشيخ أحمد بن سعيد باغريب من تصرفات السلطان بدر المشينة فى حق رعاياه الا تنويجاً لمشاعر سابقة محتدمة فى النفوس ثم قذفت بها إلى السطح حوادث مستجدة لاتقل بشاعة عن سابقاتها .

وكان أهل الشحر أكثر الناس نقمة على السلطان بدر . وفى ذلك يقول الربان باسباع : (كانوا يتقدونه سراً وجهراً ، ويركبون (يشنعون) عليه .

ومن جملة التراكيب (التشيعات) التي يرددونها عنه في القاعد أن السلطان بدر كان عابراً بعد صلاة المغرب في مطراق ومعه جماعة من أعوانه وسمع بنات صار يغنين أغنية «الكنابير» (١١٩) التي يشلها البنات الصغار في مساء كل ليلة من الليالي الثلاث الاولى من شهر عرفه (ذي الحجة) عندما يدرجن من دار إلى دار يجمعن البقش من حريم النجار وكان يغنين :

عواد عواد يا عـرفـه متى بـالجـين
الكبـش مرصـون والقفـه ملانـه طحين
لا هلت العشر قـل يـا الله مـع الواقفـين
حجـاج ومسافريـن تحـت الجبـل واقفين
عـادت علينـا ولا عـادت على الكـافرين

فصاح بدر في واحد من صحابه وقال له سكت الكليات لعاد يسمعوهن أصحابنا الكشفان وهو يقصد صحابه الكشفان (١٢٠) البروجير ذي صادف انهم كانوا في الشحر في ذيك الليالي الفضية والله أعلم)..

ونحن لا نميل إلى تلمس اتجاه الرأي العام الغاضب من خلال هذه (النكات) على مافيها من ذكاء وحبك ، ولكننا لانستطيع تجاهل النغمات الجريحة التي نجدها في الشعر الشعبي الحضرمي منددة بمواقف السلطان بدر وتصرفاته ، فان تلك الاشعار — على قلتها — التي بقيت على مر السنين ، كانت ولا تزال مرآة صادقة لمشاعر الجماهير الناقمة على السلطان بدر الذي شاءت الاقدار أن يكون أمرهم ، حينذاك ، بين يديه .

قال الشاعر الشعبي عبدالله بن عبود مدجح امام مسجد بن قضيبي بالشحر من قصيدة طويلة ، يهجو بها السلطان بدر على تحاذله أمام البرتغاليين لفه اليهم بالمهانة ، مطلعها :-

يا الله يـا ربـاه يـا ذي القـــوه
بحـــق آي في عظـــيم قـرآنـــه
تمحـــي أثـر كل متبـــد مبطـل
يشـويـه شـاعـل مـن لظى نيرانه

إلى أن قال مخاطباً السلطان بدرا :-

عـــزاك فى الجـــودات يـــابوطارق
عـــزاك فى امـــم القبـــوله الدحـــانـــه
ريـــن باتصـــل بالمـــلك قـــل الشفـــرى
وآخـــرتهـــا قـــبر فى جبـــانـــه

ثم يوجه اليه التأنيب على عدم مقاومته البرتغاليين رغم كثرة جنده والمال الوفير الذى فى يديه قال :-

ريـــن بـــاتـــودى الوجـــه والحريـــة
حولك صفـــف وخـــزائنـــك مليانه
ربعك هـــم أصحـــابك وساعـــدك القوى
هم بـــاب حصنك والخلق واللانه (١٢١)

ويذم تودده إلى البرتغاليين قائلا :-

مـــا بـــا ينفعوك عيـــال الكفـــــره
أطلـــب مـــن الله العـــلى غفـــرانه
ذهنـــك تظـــن البردجـــير صحـــابك
شـــف كل واحـــد هـــام فى صوانه(١٢٢)

ويحرضه على الانتقام من البرتغاليين بقوله :

ماقلت بالوماه دحقـــوا عـــذرك (١٢٣)
كمـــين صـــارى (١٢٤) شرّوا ليحانه
خلوا حصونك ربت (١٢٥) تفزع من نظر
والشحر خلو ا قائمتهـــا عـــدانه (١٢٦)

ويذكره بأن الناس سوف يغادرون الشحر إلى عدن حيث الامن نسبياً متوفر :

ان باقـــع للارض نظـــرة ذا الامـــل
ولا تركنـــا سعـــادنا الخزنـــانـــه

إلى عـدن حيـث البـوارق تلمـع
فـوق العـدو اكبـارها رشاتـه

ثم يشير المعلم عبدالله إلى الذين استشهدوا فى معركة البرتغاليين مشيداً بموقفهم البطولى :

ربـك قـدا مـن مـات أهل العزه
أنزلهـم المولى فـسيح جنـانـه
مـا طابت العيشـة لهـم عـا الذلـه
للـذين قـاوا ميـد تعـلا اركانـه

ولم يكن الشعور الغاضب فى حضرموت الداخل ، على سياسة السلطان بدر ، بأقل مما كان عليه فى الشحر .

وقد تولى التنديد بسياسة السلطان بدر جماعة من ذوى الفضل كانوا فى القمة من شخصيات عصرهم . ومن أولئك المعارضين العالم الجليل الشيخ معروف بن عبدالله باجمال (١٢٧) والصوفى الشهير الشيخ عمر بن عبدالله بامخرمه (١٢٨) والداعية السيد أحمد بن علوى باجحدب (١٢٩) والفقيه الشيخ أحمد بن سالم باقرين (١٣٠) .

وحاول السلطان بدر اللجوء إلى استعمال الكبت والقمع ضد المناوئين لسياسته . واحد مظاهر ذلك القمع التنكيل الذى لقيه الشيخ معروف باجمال على يد السلطان بدر ، فقد أمر السلطان بدر أن يربط حبل فى عنق الشيخ معروف وأن يطاف به فى أزقة مدينة شبام وينادى بعده «هذا معبودكم ياأهل شبام» ..

انه الغرور اللامتناهى الذى اتصف به السلطان بدر هو الذى دفعه إلى هذه الفعلة الحمقاء التى كانت جريمة فى حق الشيخ معروف واساءة إلى أهالى شبام وإلى بقية الحضارم الذين يتزلون الشيخ معروف لعلمه وفضله ، وإلى ومنا هذا ، منزلة رفيعة . ويحسن بنا أن نعلم أن الشيخ معروف هو استاذ ولى الله الصالح البركة الشيخ أبى بكر بن سالم مولى عينات (١٣١) .

ومن مظاهر القمع الذى أقدم عليه السلطان بدر ضد المضادين له ذلك العنت الذى لقيه الشيخ عمر بن عبدالله بامخرمه .. لقد بلغ تصرف السلطان بدر فى حق ذلك الصوفي والشاعر الشعبي الشهير مبلغاً لا حد له من القسوة وانعدام روح المسؤولية .

لقد طارد السلطان بدر ذلك الشيخ الوقور من قرية إلى قرية ، وبعد أن ظفر به زج به فى سجن سيؤن مدة طويلة ثم أفرج عنه لاعتلال صحته وابقاه فى سيؤن تحت مانسميه اليوم بالاقامة الجبرية ، تحت مراقبته وضغطه كما يحدثنا المؤرخ السيد عبدالله بن محمد السقاف (١٣٢) إلى أن توفاه الله .

لذلك فاننا لا نعجب حين نسمع فى شعر الشيخ عمر بامخرمه تلك الأنة الصارخة من آل كثير وهى قوله «بني من فعايلهم غلول»[١] ، فى احدى قصائده الشهيرة .

ولقد أضطر ذلك الصوفى السمح أن يسترحم السلطان بدر مما ألم به من العذاب . فقال على سبيل التقية :

قل لبدر ابن عبدالله عزيز المواجيد
قل لبدر الذى ماعاد يوجد معه جيد
نجم سعده طالع مابين خيله وعيد يد

ولكنها كانت صرخة فى واد ، وشكوى جريح إلى العقبان والرخم .

وعندما قال الشيخ عمر ، فى وقت لاحق ، مخاطباً السلطان بدر من السجن من قصيدة مشهورة :

أطقيتها بالصبر والدنيا كذا فيها الميول
مرة لبرق لك ومرات ترى الواهما جفول

١- البيت الكامل هو :
ان آل جعفر أصل وأهل المعرفة ترعى الاصول
ماالذى فضائلهم ولو بي من فعايلهم غلول
وهكذا كان الشيخ يهادن شرور السلطان بدر ، والا فما هى أفضال بدر عليه؟

فان الشيخ عمر لم يقل الا الحقيقة .. لقد قابل ذلك الشيخ الصبور ظلم السلطان بدر بالصبر وهو مدرك ، بحكم تجاربه الغنية فى هذه الحياة ، أن عهد الظالمين لايطول لأن الدنيا ان هى ابتسمت لهم حينا عادت فاسقتهم الغصص .. وكذلك كان مآل السلطان بدر .. لقد كانت نهايته السجن الموحش والمرض العضال الموت كمداً مغضوباً عليه حتى من أقرب المقربين اليه وهم أبناؤه (١٣٣) .. تلك نهاية كل حاكم عضوض .

ولقد استطاب ناقدو سياسة بدر تحمل الاذى فى سبيل تقويم تلك السياسة ، واتخذ اعداؤه من الاضطراب فى مسلكه السياسى ذريعة للتشهير به بصوغ الحكايات التى نالت من سمعته ، صدقاً أم كذباً ، أفدح منال .

وازاء ذلك النكير المشدد المتزايد على سياسته لم يسع السلطان بدر الا ان يقوم بعمل — أى عمل — ضد البرتغاليين سعياً منه لاسترضاء الرأى العام المحلى . فراح يتحين الفرص ويتربص بالبرتغاليين الدوائر إلى أن جاء ذلك اليوم الذى حدثت فيه مذبحة البرتغاليين فى مدينة الشحر تلك المذبحة التى وصفها الربان باسباع بقوله :—

«صباح يوم الاحد الخامس من شهر رمضان المبارك سنة الاثنين والاربعين والتسعمائة وقعت فى سوق الشحر هدة بين واحد من الباعة المشترية البانيان وواحد من البردجير على بز بغاه الفرنجى من الهندى وطال الكلام وقصر بينهم وتهادوا ودخلا بعض أهل الشحر فى الهده مع البانيان وكان فى سوق الشحر جماعة من البردجير يبتاعون ويشترون فقاموا أهل الشحر وقد كبادهم نار عليهم وهدوا فيهم وبلغ الامر إلى السلطان بدر وهو فى حصن البلاد وصدر أمره على العساكر يقتلون البردجير كلهم فى الشحر . والفرنج لم فى الشحر عددهم قدر مية نفر مفرقين فى أسواق البلاد وافتكت الناس عليهم بالصمل والحجر والسكاكين . والفرنج دخل منهم قدر ثلاثين فى دار مبارك باناعمة فى مطراق حتين وقفلوا باب الدار والناس تحذف الدار . ووقع قتل فى الفرنج قريب ستين نفر وبعضهم شردوا إلى السيف وطلعوا إلى سفينة

حقهم طارحة فى المرسى وسافرت بهم سفينتهم شريد من الموت . واما باقى السفن حق الفرنج وهى ثمان كبار وثلاث برش[1] صغار أمر بدر بمسكها ومسكوها والذى فيها ناس وبضاعة ودراهم والفرنج ذى فى دار باناعمه خرجوهم عسكر بدر وطرحوهم فى الحبس وشفى الله قلوب المؤمنين بهذه الوقعة وفرحت الناس بعد الكدر وصار اليوم عيد فى الشحر وحصل تنوير عا الديار والله اعلم» .

وبتاريخ ١٧ رمضان يمضى الريان باسباع مسجلا :-

«أربعة من كبارات الفرنج سفرهم بدر إلى السلطان سليمان التركى إلى جده وسافروا أمس بزعامة مصطفى الغواشى . والبقية عشرين طرحهم بدر فى القيد وأرسلهم إلى سجن غيل باوزير وفيه جم بردجير فى الحبس فاتاهم الله وأخزاهم . والسفن حقهم جمعوها وآلاتها باعوهـا فى سوق الشحر وأثمان الآلة مع البضاعة والدراهم حق الفرنج فرقها بدر على المتضررين من أفعال البردجير من أمثال التجار آل شبام وغيرهم والله نصر الاسلام والله اعلم (١٣٤)

وكأن الاقدار ساقت هذه الحادثة إلى أهل الشحر ، بدون سابق تدبير من السلطان بدر ، ليقتصوا لانفسهم من البرتغاليين الذين أذاقوهم سوء العذاب سنين طويلة . . ومهما كان حكم التاريخ على هذه الحادثة ، فان أحداً لم يكن يتوقع أن يطول تردد البرتغاليين الآثمين على سوق الشحر دون أن يحدث احتكاك بينهم وبين الاهالى يؤدى إلى مثل ما أدى اليه من تطور دموى .

الذكرى الأولى للشهداء السبعة

وجاء عيد الفطر السعيد سنة ٩٤٢هـ ، وكانت فرحة أهالى الشحر به مضاعفة بعد مذبحة البرتغاليين .

وقد جرت العادة أن يحتفل رسمياً بالعيدين فى الشحر بتبادل زيارات

١- برش مفردها برشه وهى تسمية فارسية لنوع من السفن المسلحة ومن هذه الكلمة أتت كلمة بارك أو بارجة.

المعايدة فى الصباح واقامة المهرجانات العامة فى العصر أمام حصن البلاد للاربعة الايام الأولى من كل عيد .

وفى شهر ذى القعدة سنة ٩٤٣هـ تولى الشيخ عبدالله بن عمر بامخرمه منصب القضاء فى الشحر ، وأقترح ذات يوم على السلطان بدر ، اقامة حفل سنوى تكريماً للشهداء السبعة ..

وبعد المشاورة مع أهل المدينة استقر الرأى على أن يكون عصر اليوم الخامس من عيد الاضحى القادم يوم ذكرى للشهداء السبعة ، وكان أول ذكرى تقام لهم هى التى اقيمت عصر يوم الخامس عشر من شهر ذى الحجة سنة ٩٤٣هـ .

وحدثنا الربان باسباع عن تلك الحفلة فيقول :-

«واجتمعت الامة عند قبر الشهداء وحضروا الدول والسادات والمشايخ والتجر (التجار) والناس كافة تواردوا من المكلا والمشقاص وحضرموت ودوعن والكسر وكافة الوديان . وقام الشيخ عبد الله بن عمر بامخرمه فى الناس بالوعظ وجاب تاريخ الشحر وتاريخ كل واحد من الشهداء السبعة كلام ابكى الحاضرين وتكلم عن الشهداء الثانين ذى ماحد عرفهم وقال مشهورهم تغمره بركة مستورهم وطلب من الحاضرين ومن أهل الشحر دراهم مساعدة لاجل كل دار حق فقير احترقت يعمرونها وكل يتمة خلفهم فقير يصرفون عليهم خرج لان يكررون وقال هاذولا جاهدوا فى سبيل الله ولو ما هم كان الكفار احرقوا البلاد كلها بمدارسها ومساجدها لان فى قلوبهم غل عا الاسلام وفى آخر الخطبة قرا أعلى الناس قوله تعالى : هأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا امثالكم[1] (صدق الله العظيم) .

١- محمد: (٣٨).

وأهل البلاد جادوا ماجد قصر كلين على قدر طاقته حتى بعض الحريم باعن مصاغهن لمساعدة المحتاجين والشيخ عبدالله كلامه أثر في الحاضرين والغائبين وتناقلوه إلى كل مكان في حضرموت وخارجها جزاه الله كل خير والله اعلم» .

ومازال يحتفل بهذه الذكرى إلى يومنا هذا ولكن في شبه زيارة عادية ومفهوم مختلف (١٣٥) . ان ذكرى اولئك الشهداء تلاشت مع مرور الزمن والجهل الذي خيم على مدينة الشحر ، وأصبح أهل هذه المدينة لايعلمون عن هذه المناسبة العظيمة الا أنها مجرد زيارة «السبعة» وانها واحدة من الزيارات الاعتيادية الموسمية التي تقام للعديد من الاضرحة في الشحر .

لقد ألحق الزمن ، أو لعله النسيان الكنود ، هذا التشويه المزري بتلك الذكرى العطرة — ذكرى الشهداء السبعة .

والآن وقد عرفنا من هم أولئك السبعة وما هو الذي استشهدوا من أجله ، فمتى سوف يحتفل بهذه الذكرى الوطنية الجليلة بما هي جديرة به من اكبار وتعظيم ؟

«النهاية»

المكلا : ١٣ رجب ١٣٨٩هـ
٢٥ سبتمبر ١٩٦٩م

حواشي الكتاب

(١) يمنات أو يمنث في اللغة اليمنية الجنوبية تعني « الجنوب »، ص ٥٣١
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي.

(٣) ص ١٣٥ ج (٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي. هذا على أساس من يقول ان حمير الثانية كانت في يافع . وهناك رواية تزعم ان حمير الأول كانت في حبان وعزان . نفس المصدر.

(٣) القنا هي مايعرف اليوم بمنطقة بئر علي . والقنا أيضاً اسم يطلق على الخمس الجزائر القائمة حول هذه المنطقة.

(٤) موقع هذا السجن في الساحة الواقعة شرق الركن الشمالي الشرقي لحصن بن عياش الحالي. ومن الذين سجنوا وماتوا في ذلك السجن الفقيه الشيخ سليمان بن عبود بن تأيه وزير أبي دجانه والقاضي الشيخ عبد الصمد بن سالم باحويرث والفقيه الصوفي الشيخ صالح ابن عوض زحفان والشاعر الشعبي عبدالله بن عبود مدحج..ولم يكن كل أولئك المجاهدين على وئام مع حكام وقتهم.

(٥) هو الطيب بن عبدالله بامخرمه مؤلف تاريخ (قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر» ولد سنة ٨٧٠هـ ومات بعدن سنة ٩٤٧هـ.

(٦) هو الجزء الواقع شرق المسيال الرئيسي لوادي سمعون الذي يخترق مدينة الشحر.

(٧) السلطان جعفر بن عبدالله بن علي بن عمر الكثيري. كان تاجراً في ظفار ثم شجعه الشيخ عمر المحضار على تولي سلطنة بور. وفي سنة ٩٠١هـ انتزع الشحر من أبي دجانه وقتل في بور سنة ٩٠٥هـ. وهو والد عبدالله بن جعفر الذي سميت باسمه دولة آل عبدالله الكثيرية.

(٨) هو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد السعدي النجدي (نسبة إلى نجد) لا يعرف على وجه التحقيق تاريخ ولادته أو موته ولكن أوثق الروايات تذكر انه توفي سنة ٩٣٨هـ في رأس الخيمة. ويظن ان ميلاده كان في البحرين سنة ٨٣٨هـ وله مؤلفات عديدة وقيمة في الملاحة البحرية . (أنظر الملاحظة ١٣٦ عن سليمان المهري).

(٩) يذكر الربان باسباع ان هؤلاء الغرباء يشملون الوافدين إلى الشحر من وديان حضرموت الداخلية.

(١٠) من حصون الثغر المشهورة فى عصر الشهداء السيدة الحصن الاصفر وموقعه فى المكان المعروف الان بدار قمطية إلى الغرب من مسجد على وحصن البجاتي وموقعه فى المكان المعروف الان بدار قمطية إلى الغرب من مسجد على وحصن البجاتي الباقى وموقعه حارة القرية ، وحصن عمرو وموقعه مايعرف الان بحارة العيدروس، وحصن الرباط وموقعه متعلقة بن جوبان،وحصن المشراف وموقعه المكان المقام عليه الان كوت بونجوه، وحصن كوت المشراف وحصن سمعون وموقعه المكان المقام عليه الان كوت بونجوه، وحصن صالح وموقعه حارة الخور وحصن مظهر بن سمير وموقعه جنوبي دار الجنيدي بعقل بالقريب.

(١١) ص ١٦٤ ج(٢)، المشروع الروي، المشلى .

(١٢) ص ١٧٢ من كتاب الدكتور سارجنت (البرتغاليون حول ساحل جنوب بلاد العرب).

(١٣، ٣٥) كلمات دارجة حضرمية :-

(١٣)المتخ اشارة على البر كجبل أو نحوه تنزل عليها السفن عند دخولها إلى ميناء معين. (١٤) المطرح المكان الذي تلقى فيه السفن مراسيها فى الميناء. (١٥) المطرح الرسو. (١٦) شويرية أثنان من المراسى يوضعان أمام السفينة لكيلا يتلاعب بها الريح . أما المرسى التي تلقى خلف السفينة فاسمها لقن .(١٧) رمى—غزر. (١٨) رق يعني ضحل (١٩) الكبار اليافع تصنع منها حبال تستعمل فى ربط الواح بعض السفن إلى بعضها عند بناء السفن. (٢٠) السفن التي تربط ألواحها إلى بعضها البعض بالمسامير الحديدية. (٢١) توشر أي تبني . (٢٢) الزعيمة—السفينة. (٢٣)النواخيذ جمع نوخذه والكلمة فارسية مركبة من (نا) ومعناها سفينة ومن (خذه) ومعناها مالك السفينة أو المسؤول عنها. (٢٤) الربان هو الذي يرشد السفينة فى البحر على المعالم البرية. (٢٥) المعلم هو الذي يرشد السفينة فى سيرها فى أعالى البحار على البوصلة.(٢٦) التالية كلمة فارسية ومعناها ماتحتاج اليه السفينة فى سيرها فى أعالى البحار من خرائط وبوصلة الخ الخ .(٢٧) السناقل جمع سنقل والكلمة محرفة من الهندية (زنجر أو زنجير) ومعناها السلسلة الحديدية. (٢٨) البراوصة جمع بروصى وهو المرساة. (٢٩) الأشرفي عملة ذهبية تساوي ٣٦٠ ريالا والريال يساوي ٤٨ بقشة فى ذلك الوقت ولا يعرف الان بالضبط أي أشرفي هو المقصود لان هناك عدة عملات متداولة فى اليمن آنذاك بهذا الاسم منها ماينسب إلى الملك الاشرف برسباى صاحب المماليك ، ومنها ماينسب إلى الملك الاشرف الرسول. وللباحثين فى هذا تخريجات معقولة وغير محددة اذ لا يعرف على وجه الدقة معدن وثمن الريال بالنسبة لعملة اليوم ولا وزن الاشرفي ولا نقاوته (٣٠) النجديب جر السفينة إلى الشاطئ (٣١) الشطين نزع أثقال السفينة وآلاتها ثم حفظها فى مكان آمن على البر طيلة مدة الرياح الموسمية (٣٢) يشتي أي يقضي فصل الشتاء على البر ، ويصيف أي يقضي فصل الصيف بعيداً عن بلده وعكسه يدير أي يسافر

إلى بلده وقت الخريف أي الرياح الموسمية (٣٣) يدهك جوانب السفينة الخارجية اي يصقلها من الطفيليات العالقة بها ثم يدهنها بالمواد الخاصة لحفظها (٣٤) يداوي أي يرمم السفينة او أي جزء من اجزائها أو آلاتها. (٣٥) الكفر معناه ربط الحبل اذا انفصم بحيث يغدو و كأنه حبل جديد، والشخص الذي يقوم بهذه العملية يقال له كفار. وبالمناسبة فان تقاليد السفن تقضي بأن لا يتولى وظيفة الصرنج في أية سفينة شراعية كبيرة الا الشخص الملم بأسلوب الكفر أضافة إلى المؤهلات التقليدية المطلوبة منه للقيام بالعمل المطلوب من الصرنج .*

(٣٦) يطلق على وادي حضرموت أسم وادي ابن راشد نسبة إلى السلطان عبدالله بن راشد القحطاني. ولد في ترم سنة ٥٥٣هـ. وولي الحكم سنة ٦٠٦هـ وفي سنة ٦١٦هـ أجلاه ابن مهدي عن ترم وفي هذه السنة قتل.

(٣٧) هو السلطان عبد الرحمن بن راشد بن أقبال بن فارس استولى على الشحر وملكها سنة ٦٢١هـ ويقال انه بقي حاكما عليها أربعين سنة. وتوفي في الشحر ودفن فيها سنة ٦٦٤هـ قبره الان غير معروف.

(٣٨) منقوش في أحد سقوف هذا المسجد هذه العبارة: مسجد الشيخ أحمد بن قضيمي بني عام ٨٤٦هـ على يد شخص أسمه محمد بن عبدالرحمن.

(٣٩) يذكر أهل الشحر ان الشيخ حسين بن عبد الرحمن بن سهل عمر مسجد الجامع سنة ٨٦٥هـ. وابن سهل هذا توفي بالشحر سنة ٨٧٥هـ وقبره غير معروف.

وفي سنة ٩٣٤ قام كل من السيد عبدالله بن عبد الرحمن بن الفقيه مولى عيديد والقاضي الشيخ اسماعيل الكرضمي بتوسيع بناية الجامع من الناحيتين الشرقية والشمالية وزادا عدد جوابيه واضافا اليه جناح النساء.

وفي سنة ١٢٢٠هـ أعاد عمارة الجامع ووسع رقعته السيد حسين بن محمد بن سهل. وتوفي في هذا السيد بالشحر سنة ١٢٧٤هـ، وهو الذي أقام منارة الجامع التي اشتهرت في منطقة الشحر بارتفاعها الشاهق. وفي سنة ١٣٧٠هـ خيف على تلك المنارة من التهديم لانها كانت مبنية من الطين فهدمت وأعيد بناؤها على ارتفاع قريب وذلك على يد حاكم الشحر الشيخ أحمد بن عمر باصرة.

وفي سنة ١٣٨٥هـ أعيد بناء الجامع من جديد بناء حديثاً قوياً وزود بالماء العذب والنور الكهربائي بأشراف حاكم الشحر الشيخ عل بن محفوظ بن بريك، وقاضيها الفقيه الشيخ عبد القادر بن محمد المهاري.

ومن الرجال المشاهير الذين تولوا الامامة والخطابة في الجامع في القرن العاشر الهجري:

---

* الصرنج تحريف محلي لنطق كلمة سهرنج وهي كلمة هندية وتعني نائب الناخوذه.

الفقيه الشيخ عبدالله بن عبد الرحمن باحاج بافضل (توفى بالشحر سنة ٨٩١٨هـ).
الفقيه الشيخ عمر بن عبدالله بن حاتم ـ مفتي الشحر (توفى بالشحر سنة ٨٩١٩هـ).
الفقيه الشيخ أحمد بن محمد سبي (توفى بالهامى سنة ٨٩٤٧هـ).
الفقيه الشيخ محمد بن سالم بامعيد وهو الذي أقام مسجد بقشه. وتوفى الشيخ محمد سنة ٨٩٧٠هـ بالشحر ودفن ببناء على وصيته بجوار استاذه الشيخ عمر عبد الرحيم باوزير (مولى الربع) بغيل باوزير. وبعده تولى الامامة والخطابة الفقيه الشيخ سعيد بن يعقوب بالرعيه (توفى بالشحر سنة ٨٩٧٢هـ).
الفقيه الشيخ عبدالله بن عمر باحرمه (الشافعى الصغير) (توفى بعدن سنة ٨٩٧٢هـ).
الفقيه الشيخ عبدالله بن عقيل بافضل (توفى بالشحر سنة ٨٩٨٠هـ).

(٤٠) نظم الملاح الشيخ سعيد بن سالم باطائع منظومته الأولى سنة ١٢١٧هـ (١٨٠٢م) لتبيان خط السفر من ميحوت إلى جزيرة زنجبار بشرق أفريقيا. وهذه المنظومة مكونة من تسع وعشرين رباعية أولها قوله:-

يـــارب ســـاك تسهـل مـــاعـــر
عـل عيـــك وســـط بحـرا وبـر
بجـــاه طـــه النبي خـــير البشـــر
رحـــيم قـــدوس ســـاك يـاسـلام

ونظم منظومته الثانية سنة ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م) لتبيان خط السفر من مسقط إلى الغا (اليمن) وتشتمل هذه المنظومة على أربع أو خمس وستين رباعية أولها قوله:

يـــا الله يـــارب أدعـــوك ياخير مطلب
تعطـــى وتـــوهب ســـاك بخـير البريـــة

(٤١) كريستوفر كلومبس ولد فى مدينة جنوا بايطاليا سنة ١٤٤٦م وهو ملاح قدير. وأستطاع ان يقنع ملك أسبانيا الملك فرديناند وملكته ايزابللا بأن يساعداه فى القيام برحلة يكتشف بها طريقاً إلى الهندمن الجانب الغربي من أوروبا بدلا من الدوران حول رأس الرجاء الصالح فاكتشف بمحض الصدفة عالماً جديداً وهو القارة الامريكية . وكان أول وصول له سنة ١٤٩٢م إلى جزائر البهاماس. وفى عام ١٤٩٨م أكتشف أمريكا الجنوبية . وتوفى سنة ١٥٠٦م.

(٤٢) هو زين الدين عمر أبن الوردي المصري وله سنة ٦٩١هـ ومات سنة ٧٥٠هـ وله تاريخ مفيد.

(٤٣) ص ٥٠ من كتاب (ابن ماجد الملاح) تأليف الدكتور أنور عبد العليم.

(٤٤) كلمة (أسطول) أصلها يونانية.

(٤٥) كلمة (النولون) أصلها هندية ومعناها أجرة نقل البضاعة أو الشخص بالسفينة. ويكتبها البعض (نول)

(٤٦) ص ٣٥ من كتاب (زاد الاسفار) لمؤلفه بامعيد.

(٤٧) ص٧ من كتاب (البرتغاليون حول ساحل جنوب بلاد العرب) للدكتور سارجنت.

(٤٨) ص ٤٩ من كتاب (زاد الاسفار) وفيه ذكر بامعيد ان أشهر بناني السفن بعدن في ذلك الحين كانوا آل مقطوف وآل حسينون وآل باسكران من الشحر.

(٤٩) وله العيدروس بمدينة ترم سنة ٨٥١هـ وانتقل إلى عدن سنة ٨٨٨هـ وتوفي بها سنة ٩١٤هـ. ص ٣٦-٣٧ الجزء الثاني من كتاب (المشرع الروي) لمحمد بن أبي بكر الشلي.

(٥٠) تهب الرياح الموسمية حول ساحل جنوب بلاد العرب بشدة من ١٢ يونيو إلى ٦ أغسطس تقريباً من كل عام ثم تخف حدة الريح في حوالي نصف شهر سبتمبر وتتلاشى الرياح الموسمية في بداية شهر أكتوبر ويحل محلها ريح الازيب. ويتوقف سفر السفن الشراعية خلال هبوب الرياح الموسمية ويقال لذلك والتعليق» أي الأيام التي يظل البحر فيها مغلقاً في وجه السفن الشراعية.

(٥١) ص ١١٧ من كتاب (بهجة السمر) ..ويذكر المؤلف باسباع ان السلاطين آل كثير يرسلون إلى حاكم عدن أثاوة سنوية قدرها عشرون ألف أشرفي ذهباً، وكميات من القمح والتمر والاقمشة والمواشي وشيئاً من العنبر الاصلي.

(٥٢) من كبار تجار مدينة المكلا المقيمين بعدن ومن ذوي الرأي فيها. توفي بعدن سنة ٩٤١هـ. من كتاب (بهجة السمر).

(٥٣) ص ١٢٢ من كتاب (زاد الاسفار).

(٥٤) كلمة «الجزوة» حضرمية دارجة وتعني طاقم السفينة من ملاحين وكتبة وبحارة وغيرهم.

(٥٥) هذه الجملة أوردها بامعيد في كتابه (زاد الاسفار) ونقلناها عنه حرفياً.

(٥٦) كلمة موسم تعني عند الحضارم مجموعة السفن. فيقولون جاء الموسم من البصرة ومن سواحل أو من الهند.

(٥٧) لاحظنا بعض المؤرخين المحليين السابقين يستعملون كلمة (تجهيزة) لمجموعة السفن الحربية المحلية وكلمة (تجرينة) لمجموعة السفن التركية.

(٥٨) استوردت البنادق النارية إلى حضرموت في الربع الأول من القرن العاشر الهجري ويذكر الأخباريون ان المشايخ آل العمودي بدوعن كانوا أول من استعمل هذه البنادق (بوقتيلة) بحضرموت.

(٥٩) ص ١٢٦-١٢٧ ج (١) من كتاب «تاريخ حضرموت السياسي» للاستاذ صلاح البكري.

(٦٠) لم نذكر التواريخ التي وقفنا عليها اسم القبيلة التي ينتمي اليها هذا الامير.

يرد ان الرواية المستفيضة تقول انه من العوامر الشنافر حلان مدينة تاربة بوادي حضرموت.

(٦١) قبر السلطان عبدالله بن جعفر الكثيري غير معروف الان في المنطقة المشار اليها.

(٦٢) ص ١١٤ من كتاب (بهجة السمر) للربان باسباع.

(٦٣) بعض أبيات هذه القصيدة ذكرها باقفيه الشحري في تاريخه وفيها تحريف وتصحيف.

(٦٤) أي شامخ كأنه جبل قاف لا شموخ لجبل غيره.

(٦٥) الطب الهلال هو الطب الكبير الوارف الظل الذي يتسع ظله البدو تحته

(٦٦) المشخص هو العملة الذهبية النقية المعدن وتحمل رسم ملك عليها وتطلق أيضاً على كافة العملات الذهبية المستعملة في الحلي ولو لم تكن عليها صورة ملك من الملوك

(٦٧) بن دحلح من قبيلة آل تميم الحضارمة.

(٦٨) أول من تولى التدريس في هذه المدرسة العلامة الفقيه الشيخ علي بايزيد التواي الدوعني وأشتهر معلما ومديراً بها إلى ان توفي سنة ٩٧٥هـ. ومن الذين زاولوا التدريس مع الشيخ بايزيد في هذه المدرسة الشيخ محمد بن عبد الرحيم الجابري وهو من أهالي بروم وتوفي في الشحر سنة ٩٨٣هـ.

(٦٩) تذكر كتب التاريخ ان اباطويرق انهزم أمام آل العمودي عندما هاجم مدينة يفه بوادي دوعن. كما انهزم أمام قرية خروم بوادي عمد وقتل في هذه المعركة أحد البرتغاليين الذين كانوا مرافقين لبدر وقد دفن هذا البرتغالي في هيابن. وكانت هذه المدينة احدى عاصمتين كانتا لبدر في مملكته والعاصمة الأخرى كانت سيئون. حادثة يفه وخروم وقعت سنة ٩٤٥هـ في شهري محرم وصفر.

(٧٠) الخطفه الدعوة من أحد الاولياء الصالحين على أحد الاشخاص بالشر. و(المخطوف) هو من حلت به نتائج الخطفه.

(٧١) عبدالله بن عبود مذحج أصله من سيئون وكان مقيماً بالشحر. وبسبب هذه القصيدة، التي أوردنا أبياتاً أخرى منها في هذا الكتاب سجنه بدر ومات بسجن الشحر مع أشخاص آخرين مذكورين بالحاشية رقم (٤).

« والشاعر عبدالله مذحج كان من أبطال رجال المقاومة وقد جرح فيها جرحاً بليغاً وكتبت له السلامة »، وله قصيدة شعبية أوردها الربان باسباع في كتابه (بهجة السمر) ، ذكر فيها الفئات العمالية التي كانت عماد المقاومة ضد الغزو البرتغالي في الشحر ، منها قوله :-

خرجت في النالبة عالغز باحـــادي
بالحيك والصيغ والبحار والحـداد

وأهل المناسع وبالمخطب وباشادي
وأهل السفن والقوارب جو على الميعاد

وعيال عفتور هم زادي ومزنادي
كم من فتى يعجبك عند اللقاء هداد

عصه قصار العصر ماقول مرادي
لياسهم بل السباعيات بن مقداد

كونسوا على ود عصب الشيخ شهادي
ماقصدنا شي كفصن أو غوط في الأجاد

البردجيز الكلاب بل كبير وقادي
في الشحر ، هذا جزاء الفسقة الأوغاد

لا شقهم قد غدوا في الساحة إرمادي
بالاستشق إرمادهم تبرود للأكباد

لاذكرت تسع المية مابين أعدادي
وبعدها التسع والعشرين في الأعداد

نقول هنود لكم ياعويلة إسعاد
ياحي والله سنه بارادياعواد!!

قوله (أهل المناسع) أي العمال الأقوياء الذين ينقلون على الأعواد الخشبية (المناسع) على كواهلهم الأحجار الثقيلة من محاجرها إلى مواقع البناء . (والمخطب) إسم أسرة معروفة وباقية في الشحر إلى يومنا هذا كان جل رجالها عمالا في معاصر زيت السمسم ، وقد أطلق الشاعر مدمج إسم الأسرة على كافة عمال معاصر الزيت (وباشادي) إسم أسرة معروفة وباقية في الشحر إلى يومنا هذا كان جل رجالها عمالا في البناء ، وقد أطلق الشاعر مدمج اسم الأسرة هذه على كافة عمال البناء . ((وعيال عفتور) كان أهل الشحر يطلقون على الفلاحين إسم عيال عفتور نسبة إلى الألهة اليمنية القديمة عفتور أو عفتر أو عشتر رمز الخصب والنماء الزراعي . (هداد) أي مقاتل ، (مرادادي) القصصان التي يصل طولها إلى القدمين وكان يلبسها تجار الشحر وشيوخها ذوو الحركة المقتدة ، خلافاً للسباعيات (الأزر) التي يلبسها العمال والفلاحون وكانت قصيرة العرض والطول وتصل إلى أسفل الركبة وتساعد على خفة الحركة في العمل والقتال (عويلة سعاد) أبناء سعاد الشحر . (بارادياعواد) جملة تعني إذ كان الشاعر ينعي سنة أخرى كسنة ٩٢٩هـ التي حدثت فيها المقاومة ضد الغزو البرتغالي ، تعود كرة أخرى فتمكن أهل الشحر من مجالدة البرتغاليين من جديد .»

(٧٢) أورسطو (أورسطاليس) ولد سنة ٣٢٢ قبل الميلاد . كان تلميذاً لافلاطون وهو مؤسس المدرسة الفلسفية في أثينا التي أدت إلى أتساع الفكر الانساني والاسكندر المقدوني (نسبة إلى أقليم مقدونيا) ولد سنة ٣٥٦ ومات سنة ٣٢٣ قبل الميلاد وعمره ثلاث وثلاثون سنة . ورث عن أبيه الملك فيليب الحكم سنة ٣٣٦ ق.م. وكانت مغامراته من هزم ملك الفرس داريا واكتسح سوريا وفينيقيا (لبنان) وكل المدن الكبيرة الواقعة حول حوض البحر الأبيض وفتح مصر وأنشأ بها مدينة الاسكندرية التي سميت بأسمه . وأخيراً أكتسح بابل ومات بعد عودته منها بأحد عشر يوماً وتبرت معه أحلامه في توحيد العالم المعروف آنذاك .

(٧٣) ولد بالشحر سنة ٨٩٠٧هـ. كان فقيه زمانه. وله مؤلفات في الفقه والتاريخ وغيرها من العلوم. كان شاعراً حسن الانشاء. وهو ابن الصوفي الشهير الشيخ عمر بن عبدالله بامخرمة. تولى القضاء في الشحر سنة ٨٩٤٣هـ وتولاه فيها مرة أخرى سنة ٨٩٥٤هـ لمدة خمسة أشهر خلفاً للعلامة الفقيه الشيخ سالم بن محمد باعبيد الذي ولى القضاء في الشحر في شهر صفر من ذلك العام للمرة الثانية . توفي الشيخ عبدالله سنة ٨٩٧٢هـ بعدن ودفن بمقبرة الشيخ جوهر..

(٧٤) ولد السيد محمد بن عمر بافقيه الملقب بـ(الطيب الشحري) سنة ٨٩٧٠هـ وهو مؤلف التاريخ المعروف باسم (تاريخ الطيب الشحري عن وفيات القرن العاشر الهجري) توفي بالشحر سنة ١٠١١هـ.

(٧٥) ذكر الريان باسباع في مكان آخر من كتابه (بهجة السمر) ان الاتاوة السنوية التي كان يدفعها السلطان بدر أبو طويرق لحاكم عدن الطاهري تقدر بخمسة عشر ألف اشرفي ذهباً وكمية من القمح والتمر والاقمشة والمواشي يقدر ثمنها بعشرة آلاف أشرفي. هذه أضافه إلى (النوائف الاخرى) على حد تعبيره.

(٧٦) من الخطأ الشائع بحضرموت ان بدر ابا طويرق هو الذي أتى بيافع كجنود ولا مرة إلى حضرموت . والواقع ان يافع قدماء في حضرموت وقد أشرنا إلى ذلك في هذا الكتاب . والجنود اليافعيون الذين كانوا في جيش أبي طويرق هم من سكان حضرموت أما البيت المشهور :-

لا تحمل لبدر يوم جلب يافع
راسي ضرب من قرحة المدافع

فقد قاله الشيخ سعد بن علي باصليح ، الملقب بـ(السويني) المتوفى بتريم سنة ٨٨٥٧هـ في المعركة التي دارت سنة ٨٨٥٥هـ، بين بدر بن عبدالله بن علي بن عمر وآل يماني في الموقع المعروف باسم باجلحبان إلى الجنوب من مدينة تريم . وكان في جيش بدر المذكور فرقة من المقاتلين اليافعيين أما الجنود الستة آلاف الذين أتوا من يافع إلى حضرموت فقد جاء بهم السلطان بدر بن محمد المرذوف بن بدر بن عمر بن بدر ابي طويرق ، وذلك في

شهر ذي الحجة سنة ١١١٦هـ كما ذكر ذلك الشيخ سالم بن محمد بن حميد في تاريخه وهو المعتمد.

(٧٧) (الديوان) حصن يضم مكاتب حاكم مدينة الشحر وأعوانه . ويقع في المكان الذي شيدت عليه دار آل الشيخ علي بن هرهره الشرقية ، وتمتد أمامه إلى الجنوب ساحة السوق.

(٧٨) ص ١٧١ من كتاب الدكتور سارجنت (البرتغاليون حول ساحة جنوب بلاد العرب) ويتفق ماذكره البرتغاليون مع ماورد الربان بلسباع.

(٧٩) ص ١٧٢ من كتاب الدكتور سارجنت سالف الذكر.

(٨٠) في الصفحة ٢٠ من كتابه السالف الذكر يقول الدكتور سارجنت مانرجمته (في لحظة قصيرة فقط كان بوسع البرتغاليين احتلال عدن، وذلك حينما انتزع عدنا من الاتراك الشيخ علي بن سليمان الطولقي سنة (٩٥٤)هـ ١٥٤٧م، وبادر بالبحث عن حليف له وأقترح على البرتغاليين النزول في عدن ، والتضامن معه. غير ان البرتغاليين أضاعوا هذه الفرصة السانحة المسرحه بسبب تلكؤ القبطان البرتغالي.. فلقد كان الاتراك أسرع منهم في القيام بهجوم مضاد على الشيخ الطولقي وعندما أتت من الهند القوة البرتغالية لاحتلال عدن كانت متأخرة ستة أيام(لقد سبقهم الاتراك إلى استعادتها من الطولقي بعد ان قتلوه في نفس السنة . والطولقي هو شيخ مدينة حنفر بساحل الساحل.

(٨١) قرية تباله تبعد حوالي سبعة أميال إلى الشمال من مدينة الشحر..

(٨٢) قرية نخيل بن يمين تبعد حوالي مائة ميل إلى الشمال من مدينة الشحر..

(٨٣) قريتا زغلة والحوة تبعدان بحوالي عشرة أميال إلى الغرب من مدينة الشحر.

وتسمى قرية الحوه أيضاً شكلتزة.

(٨٤) مما نقله الدكتور سارجنت في كتابه سالف الذكر عن السجلات البرتغالية يبدو أن البرتغاليين المعتدين حاولوا التهوين من مقاومة أهالي الشحر لغارتهم الا انتقامية ولم يذكروا مالحق بهم وما ألحقوه هم بالمدينة وأهلها من أضرار، ولكنهم ذكروا، وفي ذلك أشارة إلى النهب الذي قاموا به ، ان في المدينة ثروة تكفي بعمل عدد من الناس أثرياء.

(٨٥) سميت هذه الساحة بهذا الاسم لان قيانا (ميزانا) كان بها توزن حمولة الابل الخارجة من الشحر إلى حضرموت الداخل . وظلت عمارة القيان قائمة إلى سنة ١٩٤٨م.

(٨٦) منطقة دقيقة تبعد حوالي ميل ونصف الميل إلى الشمال من الشحر وبها عدة آبار وحدائق.

(٨٧) بئر بن شكر معروفة وهي نصف مدفونة الآن وموقعها حارة باذيب.

(٨٨) بئر الشفاء غير معروفة الآن، وانما يزعم أهالي الشحر انها البئر الواقعة على الضفة الغربية من مسيال سمعون على محاذاة حديقة البلدية الراهنة.

(٨٩) القنابر مفردها قنبره. والكلمة أصلها تركية .وهي عبارة عن قنبلة حارقةتصنع من القطار وتعبأ بالبارود والمواد الملتهبة يلقى بعدد منها بعد اشعالها على السفينة فتحدث فيها اشتعالا قد يتلفها اذا لم يتدارکها أحد.وقد وردت هذه الكلمة في كتب التاريخ القديمة الحضرمية . فيقال (وقعت محاذفة بالقنابر) أي تبادلوا رمي القنابر . ولعل كلمة (قنبلة) الحديثة مأخوذة من كلمة قنبرة القديمة . ولكونها مصنوعة من القطار فان الحضارم يسمونها أزيار أيضاً ، مفردها زير ، ومن هنا جاء قولهم (محاذفة بازيار) تعبيراً عن المنابذة بقوارص الكلام.

(٩٠) مسجد الشيخ عبدالله بن أسعد اليافعي في حارة الحوطة.

(٩١) بعض المؤرخين الحضارمة يستعملون كلمة (الرابطة) بمعنى الحامية.

(٩٢) رواية تقول ان السفن اتجهت من الشحر صوب الهند ،وأخرى تقول انها اتجهت إلى جزائر دهلك بالبحر الأحمر.

(٩٣) في الاصل (أحمد بن عبد الرحمن) ولعله خطأ مطبعي.

(٩٤) ص ٤١ (تاريخ الدولة الكثيرية) للاستاذ بن هاشم.

(٩٥) ص ١٢٤-١٢٥ من (صفحات من التاريخ الحضرمي) للاستاذ سعيد عوض باوزير.

(٩٦) كتابه (النور السافر) .ولد السيد عبد القادر بمدينة أحمد أباد بالهند سنة ٩٧٨هـ وتوفي ودفن بها سنة ١٠٤٨هـ.

(٩٧) من كتاب (الطيب الشحري).

(٩٨) نقل الدكتور سارجنت هذه العبارة عن سجلات البرتغاليين .لعله نظر أيضاً إلى ماذكره (الطيب الشحري) عن «المقاومة»..

(٩٩) لاتوجد اليوم مقبرة في الشحر بهذا الاسم وانما يذكر بعض أهالي الشحر ان هذه المقبرة هي المقبرة الواقعة إلى شمال حارة الجرف مباشرة.

(١٠٠) ولد بالشحر سنة ٩٣٨هـ ومات ودفن بها سنة ٩٨٦هـ. قبره غير معروف.ويذكره بعض المؤرخين ،خطأ ،بلسم باسجله.

(١٠١) أنظر حادثة جمادى الاولى سنة ٩٣٤هـ فصل (نماذج من القرصنة البرتغالية).

(١٠٢) ص ٤٩ من كتاب (تاريخ الدولة الكثيرية) للاستاذ بن هاشم.

(١٠٣) قرية وموكب ساحلية وكانت ذات شهرة في الماضي . وتقع على بعد عشرة أميال تقريباً إلى الشرق من مدينة المكلا. لقد كانت المكلا في التقديم من أعمال مدينة

رو كب القديمة كما تدل بعض الوثائق التي مازال يحملها بعض أهالي المكلا الخاصة بعقاراتهم.

(١٠٤) مدينة قيدون بوادي دوعن وبها قبر ولي الله الصالح الشيخ سعيد بن عيسى العمودي.

(١٠٥) رأس فرتك أسم جبل في المنطقة المهرية ممتد في البحر. وهو علم ملاحي مشهور عند أرباب السفن.

(١٠٦) مرير منطقة ساحلية بها نبع ماء عذب. تبعد عدة أميال إلى الغرب من مدينة الشحر.

(١٠٧) آلة السفينة تعني أدوات السفينة الشراعية بصورة عامة، وتعني على الخصوص دفتها وبوصلتها والا سطرلاب الذي يستعمله ملاحها.

(١٠٨) بروم أو بنتر بروم ميناء مأمون للسفن الشراعية أيام الرياح الموسمية وتقع على بعد عشرين ميلا تقريباً إلى الغرب من المكلا.

(١٠٩) رأس باغشوه جبل ممتد في البحر وهو علم بحري عند أرباب السفن الشراعية. وحوله قرية صغيرة يقال لها رأس باغشوه أيضاً وتبعد حوالي ٣٥ ميلا إلى الشرق من مدينة الشحر وقد سميت هذه القرية بأسم ولي الله الصالح الشيخ محمد بن أحمد باغشوه وله قبر بها يزار.

(١١٠) سنبوق وصنبوق وسنبوك وهو اسم لزورق صيد السمك، وقد يطلق هذا الاسم على السفينة الشراعية الكبيرة.

(١١٢،١١١) عين بامعبد اسم منطقة وقرية ساحلية تقع بين عدن والمكلا. وكانت هذه المنطقة نهاية الحدود الحضرمية الغربية لحضرموت القديمة التي يحدها من الشرق عمان. وتقع قرية أحور العولقية إلى غربها.

(١١٣،١١٤) قبيلة الزوهدي أكبر وأقوى قبيلة مهرية ومساكنها منطقة مدينة سيحوت وهي ساحلية.

(١١٥) يذكر الريان باسباع انه شاعر شعبي وفلكي وفقيه ويطلق عليه أهل الشحر لقب «المعلم». كان في السبعين من عمره عندما أمر السلطان بدر أبو طويرق جلده في ساحة سوق الشحر بعد صلاة العصر.

(١١٦) كلمة وعورة حضرمية دارجة تعني شكي شجب أو استنكر أو استقبح.

(١١٧) هو المؤرخ عبدالله بن الطيب بن عبدالله باخرمه. توفي بتعز في سنة ٩٧٥هـ وهو الذي أكمل تاريخ والده بعد ان كان الطيب قد توقف عن التدوين في أحواله سنة ٩٢٧هـ.

(١١٨) الشيخ سالم بن محمد بن حميد بن بلفة تريس الواقعة على بعد ثلاثة أميال إلى الغرب من مدينة سيئون. توفي ودفن في بلدته بعد عام ١٣١٣ هـ.

(١١٩) الكنابر مفردها كنبارة أو كنبرة.. وهي محرفة من كلمة (قنبرة) التي مرت بنا في الملاحظة رقم ٨٩. والكنبارة وعاء مصنوع من الطين أشبه بصوري الحيالا يحمل على عود ويوضع فيه لبان ليشعل وتحمله القنيات الصغيرات للاتارة.

(١٢٠) كلمة «كشفان» مفردها اكشف وهي حضرمية دارجة ومعناها مكشوف او مفضوح الحال.

(١٢١) العلق كلمة حضرمية دارجة تعني مفتاح الباب و كذا اللالة.

(١٢٢) وصف حضرمي دارج للرجل المخادع ، اذ هو شبيه بالحية (الطام) المختبيء في كوم (صوانة) التبن أو قصب الذرة الجاف.

(١٢٣) دحق (داس على) عذره (حماه) أو الحق به عاراً .

(١٢٤) (الصاري) كلمة حضرمية دارجة تعني السفينة تمخر عباب البحر. و كلمة (شرّوا) تعني حطموا الواح (ليحان) الخشب التي شيدت منه السفينة.

(١٢٥) (ربت) كلمة دارجة أي صار فتاتا.

(١٢٦) (القائمة) البيان القائم أو العامر . خلوه (احالوه إلى) عدالة (كوم من الانقاض).

(١٢٧) ولد بمدينة شبام سنة ٨٩٣هـ ومات ودفن في بلدة بضه سنة ٩٦٨هـ وقد نفاه السلطان بدر إلى مدينة بضه بوادي دوعن ومكث بها فترة من الزمن . وهو من المشائخ المشهورين بالتصوف والجاه والنفوذ بين عامة الشعب. وله مشهد يزار في شبام ويزعم بعض المؤرخين ان ماقعله به بدر كان بسبب عقيدة العامة فيه وفي قداسته.

(١٢٨) الصوفي والشاعر الشعبي الشهير . ولد بمدينة الحجرين سنة ٨٨٤هـ وقضى فترة من حياته في مدينة الشحر . ومات بمدينة سيئون سنة ٩٥٢هـ وله قبر يزار بها.

(١٢٩) ولد بمدينة تريم وتوفي بها سنة ٩٧٣هـ وله حكاية طريفة مع السلطان بدر ذكرها الاستاذ بن هاشم بصفحة ٥٢ من كتابه (تاريخ الدولة الكثيرية) تدل على نفرة السيد باجحدب من بدر.

(١٣٠) أحد مشائخ مدينة تريم وهو صاحب السيد أحمد باجحدب . أما الشيخ سعيد أبن علي باسعيد فيذكر انه من أعلام الشحر والله أعلم .

(١٣١) صاحب المقام الروحي الشهير . ولد بمدينة تريم سنة ٩١٩هـ ومات ودفن بمدينة عينات سنة ٩٩٢هـ.

(١٣٢) ص ١٣٢ من الجزء الاول من (تاريخ الشعراء الحضرميين) .. توفي السيد عبدالله بن محمد السقاف بمدينة سيئون سنة ١٣٨٧هـ.

(١٣٣) بصفحة ٥٤ من كتاب (تاريخ الدولة الكثيرية) يقول الاستاذ بن هاشم ما ملخصه لما بلغ السلطان بدر خمساً وسبعين سنة ضاقت حوصلة ابنه عبدالله على ان تسعة او تسع نصرفاته واتجاهاته. فالقى القبض عليه سنة ٩٧٦هـ وحبسه فى حصن مريمة نحو سنة ونصف ولما ثقل على بدر المرض أعاده ابنه إلى سيئون فأدركته الوفاة فى شهر شعبان ٩٧٧هـ.

(١٣٤) المؤرخون الذين أتوا فى أعقاب المؤرخ الريان باسباع ذكروا تفاصيل هذه الحادثة بروايات مختلفة . وقد افردت لتلك الروايات دراسة خاصة اسميتها (مناقشة تاريخية) حاولت فيها اظهار التناقض بين تلك الروايات واستبعاد مالا يقبله العقل منها. وتقع هذه الدراسة فى حوالى عشرين صفحة حجم ٨×٥ بوصة.

(١٣٥) من جملة الروايات الكاذبة التي يرويها أهل الشحر عن «السبعة» رواية قصها علينا معلمنا فى المدرسة أيام الصغر وفحواها ان «السبعة» قتلوا فى نزاع شب بين حارة عقل باعوين وحارة عقل بالغريب فى مدينة الشحر بسبب أختلاف الحارتين على أحدى العوائد التقليدية بين الحارتين.

(١٣٦) يذكر الدكتور أنور عبد العليم فى كتابه عن ابن ماجد مايلى : أصل سليمان المهري من بلدة الشحر على الساحل الجنوبي لحضرموت . وكان سكان هذه البلدة منذ الزمن القديم ملاحين مهرة وعلى صلات بسواحل أفريقيه الشرقية وكذلك بسواحل الهند واوخيبل الملايو . ولسليمان المهري خمسة مصنفات فى الملاحة مكتوبة نثراً ومحفوظة باجمعها فى مخطوط باريس رقم ٢٥٥٩ وأكبر هذه المصنفات هو (العمدة المهرية فى ضبط العلوم البحرية ويعالج أصول الملاحة الفلكية والنجوم والطرق البحرية والطرق الموصلة إلى الجزر وقياس الجاه والفرقدين والرياح الموسمية وأحوال بحر القلزم أي البحر الاحمر ، ويرجع تأليفه إلى عام ٩١٧هـ (١٥١١م) أي بعد ابن ماجد بزمن يسير .أما المصنف الثاني الكبير فعنوان «كتاب المنهاج الفاخر فى علم البحر الزاخر» ويحوي علم دير البحور والقياسات وصفات الجزر والمسافات بالرياح والمحفورات وعلامات قرب البرور وحلول الشمس فى البروج. وله رسالة بعنوان (تحفة الفحول فى تمهيد الاصول) وتحوي تقسيم الدائرة إلى خنون والطرق الملاحية الساحلية وتحديد ارتفاع النجوم والمسافات بين الموانئ والرياح والعواصف وله رسالة رابعة فى علم التواريخ ، وخامسة بعنوان (رسالة فلادة الشموس واستخراج قواعد الاسوس)اهـ .ولا يعرف تاريخ ولادته أو موته انما المؤكد انه كان معاصراً لابن ماجد وهو من أسرة آل الجوهري المهرة ،وقد قدم أجداده إلى مدينة الشحر واستوطنوها بعد نزوحهم من الساحل الجبلي المعروف فى الاقليم المهري باسم «الجوهري» نسبة إلى ولي الله الصالح أحمد بن صالح باعوين الجوهري . ويعرف ابن ماجد والحكم سليمان عند الملاحين العرب بـ(الشيخين).

(١٣٧) تقام سوق هود «أو زيارة هود» في سفح جبل يسمى شعب هود في أسفل مسيلة وادي عدم بحضرموت. ومنذ فجر التاريخ كانت تقام هذه الزيارة بعد حصاد خريف التمر في حوالي النصف الثاني من شهر أغسطس من كل عام كما يستفاد من سجل الربان باسباع عن حوادث عام ٩٢٦هـ. ومازالت تقام بعض الاسواق (الزيارات) الموسمية بحضرموت بعد حصاد الخريف كزيارة قرية «النقعة» وزيارة «مرضحين» وزيارة «حلفون». وتذكر الروايات التاريخية ان ولي الله الصالح الشيخ أبابكر بن سالم مولى عينات جعل اقامةهذه الزيارة بالشهر القمري (شعبان) بدلا من الشهرالشمسي. ولايعرف في أي وقت من حياته بدل الشيخ أبوبكر بن سالم موعد هذه الزيارة. وتذكر رواية أخرى ان الحبيب أحمد بن عبد الرحمن السقاف (٨٨٧-٩٤٦هـ)، المعروف بشهاب الدين ،هو الذي غير ميعاد هذه الزيارة من الشهر الشمسي إلى الشهر القمري ... وكان الشيخ عبدالله بن محمد باعباد (توفي سنة ٦٨٧هـ)، المعروف بالقديم، يعتاد حضور هذه الزيارة ويصحبه اناس كثيرون من الحضارم بعد الفراغ من شئون حصاد التمر وذلك في القرن السابع الهجري.. لذلك فقد أصبح تقليداً متبعاً إلى اليوم ان يكون المشائخ آل باعباد وبرفقتهم سكان مدينة الغرفة، التي أنشأها الشيخ باعباد القديم، أول الذاهبين إلى زيارة نبي الله هود في السابع من شهر شعبان من كل عام،وفي الحادي عشر من شهر شعبان يفد إلى زيارة هود موكب الشيخ أبوبكر بن سالم مولى عينات، وتنتهي الزيارة في الثاني عشر من شعبان ....ويزعم العوام ان نبي الله هوداً مقبور في صخرة كبيرة وهي التي تشكل في الواقع مشهد الزيارة، وقد أقام الشيخ حكم بن عبدالله باقشير المتوفى سنة ٨٧٩هـ قبة على هذه الصخرة. وفي سنة ١٠٩٧هـ أعاد الحبيب أبوبكر بن أحمد بلفقيه بناء هذه القبة .وفي تاريخ متأخر عمر مشهد هود الحبيب علوي بن عبدالله الكاف ، فبنى الدرج المعروف المؤدي من أسفل الجبل إلى القبة وأقام بناء من حجر حول الحجرة المعروفة بالناقة– ناقة نبي الله هود التي استحالت ، كما يزعم العوام إلى صخرة بعد وفاته في هذا المكان..

(١٣٨) فتنه محمد بن عمرو بن عبدالله بن زيد الحضرمي. وقصة ذلك انه لما غزا معن بن زائدة حضرموت استقر أحد مشائخها وهو عمرو بن عبدالله بن زيد وأمنه ثم فتنه غيلة وغدر فقتله. وكان له ولد اسمه محمد لم يكن موجوداً بحضرموت حين قتل معن بن زائدة أباه . فصمم محمد على الأخذ بالثأر من قاتل أبيه وتبع هو وأخوه الأصغر فهد بن عمرو معن بن زائدة إلى مدينة بست من اقليم سجستان وكان معن قد ولي إمارتها. وبقي محمد وفهد متنكرين في بست حتى واتتهما فرصة اغتيال معن فطعنه محمد بدية مسمومة فأرداه قتيلا. واختفى محمد وأخوه في المدينة حتى هدأ الطلب وقيل ان بعض الجند الجانية الذين كانوا في بست ساعدوا في التستر عليهما . ثم قصد محمد وأخوه الشام ومنها ركبا البحر الاحمر حتى وصلا عدن وكان خبرهما قد سبقهما إلى عدن

وتوبلا فيها مقابلة شعبية حافلة ثم توجه محمد وأخوه فهد إلى حضرموت. وقد ضرب محمد المثل في بعد المغار لطلب الثأر. وفي هذه الحادثة يقول عبد الرحمن بن محمد بن يوسف الاجعزي الحميري من قصيدة طويلة :-

يـا معـشـر أصبحت في بيـداء مظلمـة
من بعـد مـا كنت بين الخـلق تختـالا
نبيـد قـومـا بلا جـرم ولا ثـرة
أرديت منهـم كهـولا ثم أطفـالا
حتى أتـاك ابـن عمرو في أطـاسره
قـد جـاشم الصبر أحـوالا فأحوالا
حتى سقـاك بهـا كـأساً معتقـة
من شـربـة جعـلت في الصـدر أنكـالا
مـا كـان فعلك فعـل الأكـرمين لقـد
بـدعت بـالـقوم أحداثاً وأمثالا ..الخ الخ

رواية (زاد الاسفار) لبامعيبد.

(١٣٩) يقول الربان بأسباع مافحواه ان العيدروس هذا هو الشيخ حسين بن عبدالله الجمحي وانما لقب بالعيدروس لانه كان من مريدي الشيخ عبدالله العيدروس الأكبر. وكان بالشحر شخص آخر يدعى حسين بن عبدالله الجمحي وقد أطلق أهالي الشحر اللقب على حسين الأول تمييزاً له عن حسين الثاني، وقد اشتهر بهذا اللقب في الشحر.

(١٤٠) كان الشيخ عامر بن داؤد الطاهري حاكم عدن قد استعان بالسيد عبدالله بن شيخ العيدروس مولى تريم ليستعمل نفوذه في تجنيد بعض رجال المشرق للخدمة في عدن.. توفي السيد عبدالله بتريم ليلة الاربعاء رابع عشر شعبان سنة أربع واربعين تسعمائة هجرية (ص١٧٥ ج٢ «المشرع الروي» لمحمد أبي بكر الشلي).

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضـــوع
٥	الاهداء والتصدير
٧	مقـــدمه
١١	تمهيـــد
١٣	الاسم « حضرموت »
١٨	حدود « حضرموت »
٢٠	مدينة الشحر من فجر التاريخ إلى السنة العاشرة الهجرية
٢٧	مدينة الشحر فى التاريخ الاسلامى « من سنة ١٠ إلى ٩٢٢هـ »
٣٨	وصف مدينة الشحر كما كانت سنة ٩٢٩هـ
٥٠	مدينة الشحر وقرية الخامى
٥٣	تخطيط الغرب للاستيلاء على الشرق
٥٧	بداية المسرحية الاستعمارية فى شرق أفريقيا
٦٠	الاستعمار البرتغالى على أبواب الهند
٦٢	عدن فى مهب العاصفة البرتغالية
٦٨	المصريون حول السواحل اليمنية
٧٠	البرتغاليون يغزون عدن للمرة الثانية
٧٤	رد فعل الهزيمة البرتغالية
٧٧	ظهور السلطان بدر أبى طويرق على مسرح الاحداث
٨٣	الغارة البرتغالية الانتقامية على مدينة الشحر
٨٧	بداية هبوب العاصفة

٩٣ البرتغاليون الآثمون يهاجمون مدينة الشحر
٩٧ مابعد العاصفة
١٠٢ الدرس العملى من الفاجعة
١٠٥ موقف السلطان بدر أبى طويرق من البرتغاليين
١٠٨ نماذج من القرصنة البرتغالية
١١٤ موقف السلطان بدر من قادة الرأى المحلى
١٢٠ الذكرى الأولى للشهداء السبعة
١٢٣ حواشى الكتاب

ملاحظة :

وضعت ارقام حواشي الكتاب المتسلسلة بين قوسين ولبثت الشروح في آخـر الكتاب اما الهوامش فقد تركت بدون اقواس ولبثت على صفحاتها .

٨٣-٣/١٤٤×٢٠٠٠/٢٨٢٥٤/هـ.د